

مع ابن تيمية

حوارات فكرية

أ. د. راشد العبد الكريم

مع ابن تيمية

أ.د. راشد بن حسين العبد الكريم



ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبد الكريم ، راشد بن حسين بن محمد

مع ابن تيمية . / راشد بن حسين بن محمد العبد الكريم - الرياض، ١٤٤٠هـ

٢٢٣ص، ١٤×٢١سم. - (أطروحات فكرية؛ ١٩)

ردمك: ٥ - ١ - ٩١١٧٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم

أ. العنوان ب. السلسلة

ديوي ٩٢٢/١١٧ رقم الإيداع ٢٢٤٠/ ١٤٤٠

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

مركز دلائل
DALA'IL CENTRE

Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

تصدير

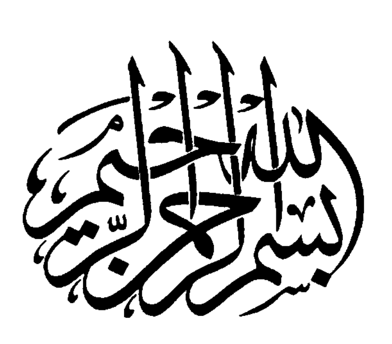
كثيرةٌ هي العقول التي أفرزتها البشرية لتقود توجهات ملايين الناس لسنوات وسنوات، وسواءً كانت تلك القيادة في الخير أم الشر إلا أن العاقل يسعى للنظر في أيٍ منها وعرضه على أوليات الفكر القويم والرأي السديد ليرى مدى اتساقها مع العقل والفطرة ومدى خلوها من التناقض في ذاتها من عدمه.

ولذلك: كانت الحاجة الماسة لمثل هذه السلسلة من (أطروحات فكرية)...

وفي هذا الكتاب لا زلنا نسبح في فكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لعظيم بصمته على العديد من نواحي الفكر الإسلامي العقدية والشرعية، لكن في هذه المرة مع تناول مختلف يقودنا فيه أ.د. راشد بن حسين العبد الكريم بقلمه الرائق الجامع بين الحس الأكاديمي والأدبي، ليبرز لنا أوثق آراء ابن تيمية من وسط كتبه ومؤلفاته العديدة التي قلَّ مَن أبحر فيها وسبر أغوارها ليقف على مرادات الشيخ الحقيقية بعيدًا عن نقص الاطلاع على تراثه أو خطأ التأويل.

مركز دلائل





"لا أحب أن يُنتصر من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه أو عدوانه، فإني قد أحللتُ كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي".

ابن تيمية

مع أني اجتهدت في تحري الدقة في النقل من كتب شيخ الإسلام، وعدم نسبة أي شيء له إلا بعد التثبت من أنه يتوافق مع رأيه، رحمه الله، إلا أن كل ما لم أضعه بين "قوسين صغيرين" فهو مما فهمته - أنا - من كلام ابن تيمية، وأنا المسؤول عن هذا الفهم، فلا يُنسب لابن تيمية، إذا كان في الواقع لا يتوافق مع ما هو في كتبه.

فهرس المحتويات

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

إن صح أن هناك من العلماء من ملأ الدنيا وشغل الناس فهو ابن تيمية. فعل ذلك في حياته وبعد مماته. يحبه أنصاره كأشد ما يحب أتباع شيخهم، ويعترفون بفضله ويثنون عليه، وبالقدر نفسه يبغضه خصومه وأعداؤه. والجميع لا يملكون التوقف عن الحديث عنه.

عشتُ دهرًا مع ابن تيمية من خلال كتبه، وكتب أنصاره وكتب خصومه، أقرأ له، فأطرب، وأقرأ لخصومه فأتعجب، وأقرأ لأنصاره فأعجب! فبالرغم من قوة حجته، ووضوح بيانه وكثرة الكتابة عنه إلا أن سوء الفهم لكثير من أفكاره ما زال موجودًا. فرأيت أن أعرض آراءه وأقواله - كما فهمتها - على شكل حوار بيني وبينه.. فتخيلت أني ...

أرِقتُ ليلةً، فغادرت فراشي قرابة الساعة الثانية صباحًا. ونزلت إلى مكتبتي على غير عادتي، كنت لا أسمع إلا صوت خشف[1] قدميّ، ولشدة هدأة الليل خِلْت أن خلفي من يتعقبني بالمشي. لم آبه لذلك، وتوجهت نحو المكتبة، لا شعوريًّا. كنت أحس أنها ملجأ آمن لي، تتبدد فيه مخاوفي، مهما كانت. كان يلف المكتبة سكون جاثم. كانت الأنوار مطفأة، إلا أن خيوطًا من أضواء الشارع الصفراء كانت تدخل المكتبة من خلال النافذة الزجاجية، فتقع بقعة من الضوء الذهبي على جزء من الكتب، ما أوجد منظرًا خلابًا، وزاد المكتبة هيبة في نفسي. كانت بعض زخارف الكتب القديمة تلمع في ذلك الضوء. ولسبب لم أعرفه لم أجد رغبة في إشعال الضوء. شعرتُ أن المكتبة تريد أن تقول لي شيئًا، وتريد أن تقوله بصوت خافت وفي ضوء خافت! استقبلت هذا المنظر الذي بدا لوحة فنية تمنيت لو أرسمها، وجلست على كرسي في زاوية المكتبة أتأمله. كان يقع في وسط هذا الضوء المنساب كتاب بني اللون، لطالما ألفته وأحببته، ولطالما قضيت معه ساعات ممتعة، يظهر بمجلداته السبعة والثلاثين. تتنوع ألوان وأشكال الكتب في المكتبة، إلا أن هذا الكتاب الموسوعة، ذا التجليد الجلدي التقليدي، يجثم بكل وقار في وسط حائط من الكتب مكونًا رفوفًا خشبية متراصة من الكتب. لم يكن مظهره جميلاً كتجليد الكتب الحديثة، لكن وقاره يفرض عليّ احترامه، وأشعر أنه يتمتع بهذا الاحترام بين الكتب أيضًا. كيف لا وأنا أكاد أجزم أن غالب الكتب الموجودة في مكتبتي لا بد أن تكون ذكرته بشكل مباشر أو غير مباشر! إنه مجموع فتاوى ابن تيمية.

---

(١) القاموس: الخشف الصوت والحركة أو الحس الخفي، والخشفة صوت دبيب الحيات.

شعرتُ أنَّ الكتاب يريد أن يقفز إلي، وأحسست برغبة في فتحه، وشيء، لا أدري ما هو، يدعوني لقراءته! فتوجهت إلى الكتاب وتناولته من بين الكتب، وفتحته، من منتصفه تقريبًا دون تقصد صفحة معينة. ومع فتحي للكتاب أحسست بأن خيالي ينفتح معه، وأبحرت في التخيل وبناء عالم من الخيال... وشعرت بهدوء غريب مفاجئ، بحيث قلَّ شعوري بما حولي، وبدت الصفحة التي فتحتها مليئة بالكلمات لكني لم أستطع تمييز شيء منها، ثم بدت الكلمات تتحرك شيئا فشيئا وتتقارب لا لتؤلف جملا كالمعتاد لكن كانت تتقافز ليظهر منها شكل غريب، ثم استمرت في التحرك والتشكل حتى بدأ يظهر فيها ملامح إنسان!

حددت النظر.. أغمضت عينيّ وفتحتهما.. رفعت النظارة ثم وضعتها مرة أخرى، فلم تزدد الصورة إلا وضوحًا. وجه إنسان واضح الملامح. أحسست بقشعريرة خفيفة، وكأن جلدي يتقلص في الجزء العلوي من ظهري. أغلقت الكتاب ثم فتحته مرة أخرى فتبدّت لي الصورة أوضح ما تكون. صورة رجل، شيخ في الستين من عمره أبيض الوجه، أسود اللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، مُعتمرًا عمامة بيضاء. هممت أن ألقي الكتاب، بل كاد يسقط من يدي! إلا أني شعرت أني أعرف صاحب الصورة، وأحسست بشعور داخلي أنه يريد أن يناديني مطَمئنًا، بأن لا أخاف. ثم تبسم تبسُّم من يدرك ما أصابني من الخوف، وبادرني بالسؤال:

+ لم تتوقع أن تراني؟

فازددت خوفًا لدرجة أني لم أعرف بمَ أجيبه. أدرك ذلك مني فقال:

+ أنا ابن تيمية!

فقلت له وأنا لا أكاد أجمع أنفاسي:

- شيخ الإسلام ابن تيمية؟!

+ نعم، من تسمونه شيخ الإسلام ابن تيمية. أنا هو، وإن شئت -لنكون أكثر دقة - فقل خيال ابن تيمية، أو ما تتصوره في نفسك عن ابن تيمية.

فقلت له، وأنا في حالة ذهول:

- ألم تمُت؟

تبسم وكأنه يدرك ما أنا فيه من دهشة، ثم قال:

+ بلى متُّ منذ قرون، لكن خيالي وصورتي النفسية تعيش في كتبي، تستمد الحياة من اجتهاداتي وأفكاري وآرائي.

- هل تستطيع أن تخرج لي وتقابل الناس؟

+ لا، فأنا الآن حبيس هذه الكتب، لا أستطيع أن أخرج إلا من كتاب إلى كتاب. فأصحاب الكتب حبيسو كتبهم وكتب من يناقش أفكارهم، لا يتعدونها.

- لكن يا شيخ الإسلام، نحتاجك هذه الأيام، فقد كثر الكلام عنك، وكثر الطعن فيك. وكثر الاختلاف عليك، فهناك من يرى أنك إمام عالم ومفكر رائد، وهناك من يرى أنك جاهل وضال، بل من يرى أنك كافر.

قلت هذا الكلام وكنت أعتقد أن الشيخ سيغضب ويثور، لكنه فاجأني عندما تبسم، تبسم الواثق، وقال بنبرة المشفق:

+ هذا أمر طبيعي، فمن يدخل في القضايا الخلافية ويأتي الناس بما يخالف ما نشؤوا عليه، يتطرف الناس في الحكم عليه بحسب مواقفهم

من القضايا التي يتكلم فيها لا بحسب النظر الموضوعي لما يقول. فالناس غالبًا يستخدمون الآخرين أدوات أو أقنعة لتبرير انحيازهم لأهوائهم، وحسب. وكثير من الناس لا يقرأ - وربما لا يعقل - إلا ما يريده، لا ما يحتاجه.

- غريب أنك لا تهتم لهذا الأمر، كنت أظنك ستغضب وتثور.

+ من تصدى لدعوة الناس للحق، يجب ألا يهتم بمدحهم أو ذمهم، بل يجب أن يكون اهتمامه منصبًّا على تحري الحق، وتتبع الدليل. فرضا الناس - كما يقال - غاية لا تدرك، فليجتهد الإنسان أن ينال رضا الله. ورضا الله لا ينبني على رضا الناس، بالضرورة. ولا يستريح الإنسان إلا إذا وطن نفسه على ذلك. ومن جعل همه رضا الله وجرد قلبه لطلب الحق، مبتعدًا عن التعصب والابتداع في الدين، وسأل الله الهداية، فهو يوفق بإذن الله.

- أريد أن أدعو الناس لتحدثهم عن نفسك،

+ لا، لا يمكن، فكما قلت لك أنا صورة حبيسة في الكتب الآن، ولا أظهر إلا لك، وفي الكتب فقط. ويمكن أن تأخذني لأي مكان لأرى وأسمع، لكني لا أكلم أحدًا ولا يراني أحد. ولو أتى أحد ونظر إلى الكتاب فلن يراني، بل سيرى صفحة مليئة بالكلمات. لكن يمكن أن نتحاور ونناقش أي موضوع تريده. وحيث إني صورة فكرية خيالية، فلن أتعب من طول الحديث أو أمل، وستجدني مستعدًّا لك في أي وقت. فأنا في هذه المجالس، بحكم أني صورة خيالية، أستمد أفكاري من كتبي ومن الكتب التي قرأتها أو تطلع عليها أنت، ففكري في هذه المجالس امتداد وانعكاس لفكرك.

- كثر المتكلمون فيك، حتى بدأ ينساق معهم بعض أتباعك.

+ لا تحزن، فأنا أعلم أن أتباع أقوالي ومنهجي كثير، ومن الطبيعي أن يترك بعضهم ذلك بعد مدة، فبعض الناس ينظر للأفكار على أنها سلع استهلاكية يقتني منها ما يروق للناس، أو ما تسمونه في عصركم بـ (الموضة). والحديث عن محبيّ وخصومي، والموضوعات التي اختلفنا فيها يطول فأقترح أن نفرد لكل موضوع جلسة خاصة.

- جلسة خاصة؟! وأين يكون ذلك؟

+ ألم أقل إني لا أستطيع أن أخرج من الكتب؟ أستطيع أن أجلس معك في أي كتاب، من كتبي أو من الكتب التي تناولت أفكاري بشكل من الأشكال، وأقترح أن نلتقي عند الحديث عن أي موضوع في أقرب الكتب لذلك الموضوع، حتى يكون الجو مناسبًا للحوار.

- فكرة رائعة. لكني أستأذنك الآن، فقد قربت صلاة الفجر.

اختفت صورة الشيخ بمجرد استئذاني. والحقيقة أن استئذاني من الشيخ ليس فقط للاستعداد لصلاة الفجر، بل لأتحقق أني لست في حلم، ولأستعدّ للحوار مع الشيخ وأرتب أفكاري. ورأيت أن أفضل بداية للحوار معه هي سؤاله عن نشأته وشيء من سيرته الذاتية.

النشأة

عدت إلى المكتبة بعد صلاة الفجر، وبالرغم من أني متعب بسبب أني لم أنل كفايتي من النوم، إلا أن ما بي من شوق للقاء الشيخ كان يطرد عني أي رغبة في النوم. وأثناء عودتي من الصلاة كنت أفكر في أي الكتب أجد ابن تيمية يحدثني عن نفسه. الكتب التي كتبت عنه كثيرة، قديمًا وحديثًا، ومتنوعة الموضوع والأسلوب. فهل أذهب إلى العقود الدرية، أو إلى الأعلام العلية، أو إلى الرد الوافر...؟ لكني كنت أفكر في أشملها. تبادر إلى ذهني، كتاب (الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، خلال سبعة قرون). والغريب أنني أثناء كتابة هذا الكلام التفت فإذا به أمام عيني في رفّ المكتبة وأنا جالس. هذا الكتاب جمع تراجم شيخ الإسلام ابن تيمية من بطون الكتب من وقته حتى عصرنا الحاضر.

فتحت الكتاب فظهر لي عشرات من الناس بثياب غريبة ومتنوعة، وتبدو من عصور قديمة، وتحيط بهم الكتب وكثير منهم مستغرق في القراءة وبعضهم منهمك بالكتابة، وبدا لي كأننا في سوق (الوراقين). لم أتبين صورة شيخ الإسلام، لكني قلبت الصفحات واخترت الصفحة التي عرضت أول الكتب التي ترجمت لشيخ الإسلام، وكان بعنوان (التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار) لأحمد الواسطي، المعروف بشيخ الحزّامين (توفي ٧١١)، فظهرت لي صورة شيخ الإسلام، فنظر إليّ نظرَ من كان يتوقع ظهوري، فشجعني هذا على المبادرة بالسؤال، فقلت له:

- حدثني عن نفسك، وكيف نشأت؟

+ أنا لم أكتب عن نفسي كتابًا، فقد كنت مشغولاً بالعلم الذي أحمله وبالمبادئ والأفكار التي أدافع عنها. ولعل الله عوضني خيرًا، فقد علمت أنه كُتب عني وعن أفكاري ما لا أظنه كُتب عن عالم قبلي ولعل هذا بسبب أني لم أكتب ما كتبت إلا لبيان الحق ولنصرة سنة رسول الله ﷺ، فلعلها من آثار (ورفعنا لك ذكرك) فكما أن ذِكر رسول الله ﷺ مرفوع فكذلك ذِكر من نشر ذِكره وسنته. والحقيقة أنه يصعب عليّ متابعة ما يكتب عني، والذي غالبه - بحمد الله -في الثناء عليّ وعلى آثاري العلمية.

- لكن يكتب عنك بعض الخصوم!

+ أعرف أنه يكتب عني أحيانًا بعض القادحين، لكن هذا لا يعد شيئًا في مقابل المادحين، كما أن غالب من يكتب في ذمي جاهل لا يُلتفت له، أو متعصب صاحب هوى فهو يبغضني لأجل مخالفتي لهواه. ويندر أن تجد شخصًا يكتب ضدي وهو لا يتصف بإحدى هاتين الصفتين، أو بهما جميعًا. لكن يجب أن تعلم " أن مجرد نفور النافرين أو محبة الموافقين لا يدل على صحة قول ولا فساده، إلا إذا كان ذلك بهدى من الله بل الاستدلال بذلك هو استدلال باتباع الهوى بغير هدى من الله، فإن اتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذي يحبه ورد القول الذي يبغضه بلا هدى من الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾(الأنعام ١١٩). ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع والتفرق والمخالفين للكتاب والسنة (أهل الأهواء) حيث قبلوا ما أحبوه وردوا ما أبغضوه بأهوائهم بغير هدى من الله".

رآني مطرقًا ومنصتًا، فواصل حديثه عن نفسه.

+ ولدت لأسرة حنبلية عريقة في العلم الشرعي، في حرّان. وهي بلدة شمال العراق تقع على بعض فروع نهر دجلة،

أضفتُ موضحًا:

- وهي الآن جنوب تركيا.

فواصل حديثه

+ فجدي كان خطيب حران وفقيهها، وأبي كذلك. كما كانت جدتي أيضًا أم أبي تروي الحديث بالإجازة. وكذلك عمّ جدي كان فقيهًا حنبليًّا تتلمذ على ابن الجوزي رحمهم الله جميعًا.

- إذن أسرتك عريقة في العلم وفي المذهب الحنبلي تحديدًا؟

+ نعم، وكان يعرف عن أبي وجدي قوة الحفظ. ولعلي ورثت عنهما هذه الصفة، وأفادتني كثيرًا في تأليفي وتدريسي.

- صحيح، فكل الذين تكلموا عنك وترجموا لك يؤكدون على هذه الصفة فيك. فيقول جمال الدين السرمري في أماليه: "كان يمر بالكتاب مرة مطالعة فينتقش في ذهنه، وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه..." وقال البزار في الأعلام العلية: "وقل كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، كأن الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء - غالبًا - إلا ويبقى في خاطره، إما بلفظه أو بمعناه، وكأن العلم قد اختلط بلحمه ودمه...".

كأن الشيخ رأى أني أطلت في الثناء، فقاطعني واستمر في كلامه:

+ ولدت في حران، عام ٦٦١ للهجرة، لكن عندما بلغت السادسة وكان التتر قد غزوا العراق، ووصلوا إلى حران، وكانوا يقتلون ويسلبون، فقرر أبي النزوح إلى الشام فرارًا منهم. فهربت الأسرة في الليل، مع من هرب، وحمل أبي معه الكتب التي كان يمتلكها، مع مشقة حملها، فقد كانت من أغلى ما لديه.

- حملتموها على الجمال أم على ظهوركم؟

+ لم يكن لدينا جمال ولا أحصنة، فقد أخذ التتار كل الدواب التي تصلح للسفر، فقد حملنا الكتب على عربة تجرها البقر.

- توجهتم إلى الشام؟

+ نعم، ووصلنا بعد أيام، وقد تولى أبي مشيخة الحديث في مدرسة السكرية، وهي مدرسة حديث مشهورة (للحنابلة). وبمجرد استقرارنا في دمشق أقبلت على طلب العلم، وقد وجدت بيئة علمية غنية ومشايخ أجلاء في كل فن، فتتلمذت على قرابة مائتي شيخ. وأقبلت على دراسة الحديث، وحفظت، بعد حفظ القران، كتاب الجمع بين الصحيحين، للحميدي.

لم يكن عسيرًا عليَّ أن أستنتج لماذا بدأ بحفظ أحاديث الصحيحين، فهما يحويان جملة أصول الشريعة التي اتفق العلماء على صحتها.

ومَضَ في عينيه بريق واستنار وجهه وهو يواصل الحديث:

+ وسمعت مسند الإمام أحمد عدة مرات، وكذلك سنن أبي داود وغيرها من كتب الحديث.

- واضح تركيزك على كتب الحديث.

+ العلم الشرعي هو العلم بالسنة، فالسنة تفسر القرآن، وتفصل الشريعة. وما ضل من ضل وأخطأ من أخطأ إلا بسبب نقص علمهم بالسنة.

- ولذا اهتممتَ بالحديث؟

+ نعم، ونشأت منذ صغري على طلب العلم، وحب البحث والنقاش، وأذكر أني قلت مرة لبعض من ينتصر لأهل الفلسفة والكلام من المشغوفين بهم "وأنا إذ ذاك قريب العهد من الاحتلام: كل ما يقوله هؤلاء ففيه باطل إما في الدلائل وإما في المسائل، إما أن يقولوا مسألة تكون حقًّا لكن يقيمون عليها أدلة ضعيفة وإما أن تكون المسألة باطلاً...".

- إذن كنت أيضًا مهتمًّا بالقضايا الفلسفية من صغرك؟!

+ هذا صحيح، "وقد كنت في أوائل معرفتي بأقوالهم [أعني الفلاسفة] بعد بلوغي بقريب، وعندي من الرغبة في طلب العلم وتحقيق هذه الأمور ما أوجب أني كنت أرى في منامي ابن سيناء وأنا أناظره في هذا المقام..."

- نعم وقد قال عنك الذهبي - مؤرخ الإسلام - إنك كنت "تحضر المدارس والمحافل في صغرك وتناظر وتفحم الكبار وتأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم".

وقال عنك أيضًا: "... ثم أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه والإجماع والاختلاف حتى كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف، ثم يستدل ويرجح ويجتهد وحق له ذلك، فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه، فإنني ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضارًا لمتون الأحاديث وعزوها إلى الصحيح أو المسند أو إلى السنن منه، كأن الكتاب والسنن

نصب عينيه وعلى طرف لسانه، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة وإفحام للمخالف. وكان آية من آيات الله تعالى في التفسير والتوسع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس أو المجلسين. أما في أصول الديانة ومعرفتها ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة فكان لا يشق فيه غباره ولا يلحق شأوه." عن ذيل تاريخ الإسلام للذهبي -عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٦٧

وقال ابن سيد الناس اليعمري " ناظر واستدل وهو دون البلوغ... وأفتى ودرّس وهو دون العشرين، وصنف التصانيف وصار من أكابر العلماء في حياة مشايخه..." عن البدر الطالع

قال الصفدي: كان كثيرًا ما يردد:

تموت النفوس بأوصابها ولم يدرِ عوادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها إلى غير أربابها

كنت كلما طلبت منه الحديث عن نفسه لمحت منه تحاشيًا لذلك، وميلاً عنه. فسألته:

- الكتب مليئة بالثناء عليك قديمًا وحديثًا وأنت تتحاشى الحديث عن نفسك...

قاطعني:

+ لا ينبغي للإنسان أن يمتدح نفسه، ولا يُدِل بعمله، فتلك أعمال نرجو أننا عملناها لله، وهو صاحب الفضل فيها، وليس لنا فيها حول ولا قوة. فما فيها من حق فتوفيق من الله، وما فيها من خطأ ونقص، فنسأل الله العفو والمغفرة. وما أنا إلا ثمرة من ثمرات علماء الإسلام الكبار الذين

بذلوا أنفسهم في خدمة السنة والإسلام. بل لعلي لا أبالغ إذا قلت إن غالب ما كتبت كان عرضًا وشرحًا لكلام علماء السلف من قبلي.

أمام إصرار الشيخ على عدم الحديث عن نفسه عدت لبعض الكتب التي تكلمت عن الشيخ، فوجدت الفقيه الشافعي ابن دقيق يقول:

"لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد". ورأيت الذهبي يقول: "... جهوري الصوت فصيحًا سريع القراءة تعتريه حدة ثم يقهرها بحلم وصفح، وإليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة وقوة الذكاء، ولم أرَ مثله في ابتهاله واستغاثته بالله تعالى وكثرة توجهه." ومن طرائف التشبيهات ما قاله عنه علاء الدين البسطامي، وقد سأله أحدهم أن يصف شيخ الإسلام، حيث قال: هل رأيت قبة الصخرة؟ قلت: نعم، قال: كان كقبة الصخرة ملئت كتبًا ولها لسان ينطق".

بعد أن قرأت هذا عرفت سبب قول أبي البقاء السبكي: "والله يا فلان، ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل لا يدري ما يقول وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به".

ثم تأملت مقولة الحافظ عمر البزار (توفي ٧٤٩): فلا أحد "... يرى عالمًا من أي بلد شاء موافقًا لهذا الإمام معترفًا بما منحه الله تعالى من صنوف الإلهام، مثنيًا عليه في كل محفل ومقام، إلا ورآه من أتبع علماء بلده للكتاب والسنة وأشغلهم بطلب الآخرة وأرغبهم فيها، وأبلغهم في الإعراض عنها وأهملهم لها. ولا يرى عالمًا مخالفًا له منحرفًا عنه، ملتبسًا بالشحناء له إلا وهو من أكبرهم تهمة في جمع الدنيا وأوسعهم حيلاً في

تحصيلها وأكثرهم رياء وأطلبهم سمعة وأشهرهم عند ذي اللب أحوالاً ردِيّة، وأشدهم على ذوي الحكم والظلم دهاء ومكرًا، وأبسطهم في الكذب لسانًا".

سألت الشيخ:

- ومتى تصدرت للتدريس؟

+ كان والدي، بالإضافة إلى أنه شيخ الحديث في المدرسة السكرية، يلقي دروسًا في التفسير في الجامع الأموي. وبعد أن توفي أبي رحمه الله وأنا في الحادية والعشرين توليت التدريس مكانه.

- جلست للتدريس في هذه السن، رغم وجود علماء كبار؟

+ ذلك فضل الله، وكما هي العادة العلمية، لا يجلس أحد للتدريس، خاصة في مدينة مثل دمشق إلا بعد أن يشهد له عدد من العلماء بقدرته على ذلك. وعلى أي حال، كما قال إسماعيل بن عياش رحمه الله: "من جلس للناس جلس الناس له، لكن أهل السنة يموتون ويحيا ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم".

تنبهت فإذا الشمس قد ارتفعت كثيرًا، وإذا بي قد بدأت أشعر بالإعياء، بسبب أني لم أنم البارحة. ففضلت أن أتوقف هنا مع الشيخ على وعد أن ألقاه ليحدثني عن منهجه، فمنهج أي عالم - وهو طريقته في الفهم والاستدلال - هو أساس إنتاجه العلمي، وهو غالبًا مصدر الفرق بينه وبين غيره من العلماء. ولأهمية المنهج رأيت أن نبدأ بالحديث عنه. فاستأذنت الشيخ في التوقف، ووعدته أن ألتقيه في المساء في الكتاب الذي قرر فيه ابن تيمية أساس قواعده المنهجية، والذي كان علامة فارقة في عصر ابن تيمية وبعده.

حديث فى المنهج

كنت حريصًا على معرفة المنهج العام للشيخ، ولم يقترح عليّ الشيخ كتابًا نلتقي فيه، ولذلك احترت أين أجده عندما نريد أن نتحدث عن المنهج، فحديثه عن المنهج متفرق في كتبه، لكني قدّرت أن رسالته (الفتوى الحموية) رسالة في المنهج بالدرجة الأولى. ومع أن الرسالة مطبوعة مفردة ومشروحة عدة طبعات، إلا أني توجهت لمجموع الفتاوى (الجزء الخامس) وفتحت المجلد من أوله، حيث يبدأ بالفتوى الحموية، فظهر لي ابن تيمية. وقبل أن أسأله بادرني هو بالحديث:

+ غالبًا أساس الخلاف يكون منهجيًا!

- كيف هذا؟

+ بلغنا الشرع من خلال الوحي، قرآنًا وسنة، وقد سن لنا رسول الله ﷺ وصحابته منهجًا لفهم هذه النصوص. وأي خلل في اتباع سنتهم في فهم القرآن والسنة سينتج عنه انحراف بمقدار ذلك الخلل، ويزيد مع مرور الوقت.

- قبل أن ندخل في تفصيلات القضايا المنهجية، هل لك أن ترسم لي "الصورة الكبيرة" لهذا المنهج.

+ هذا سؤال جيد، فإن التصور الكلي للموضوع يساعد على فهم التفصيلات، ويساعد على تعليلها، ورد الفروع للأصول. منهجي يقوم على اعتقاد أن الله خلق الخلق لعبادته وحده، وأن الله جل وعلا أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأن القرآن جاء بكل ما يحتاجه البشر من

التصورات والعقائد والقضايا العامة في حياتهم وما ينجيهم بعد مماتهم. وأن (السلف)، وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان، هم خير القرون - كما نص على ذلك رسول الله ﷺ - قد فهموا هذا الوحي على أكمل وجه، فالخير كله في اتباع سبيلهم في العلم والفهم والعمل. وكل ما يخالف سبيلهم في ذلك فهو إما حشو لا حاجة له وإما باطل وضلال، وأن محادة طريقتهم وصرف الناس عنها إلى أي طريقة غيٍّ وزيغ ومحادة لله ورسوله ﷺ. فالخير كله في اتباع القرآن وصحيح السنة، وأنه لا يجوز أبدًا معارضة شيء منها بما يظن أنه عقل أو ذوق أو علم.

"فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد وشهد له بأنه بعثه داعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا وأمره أن يقول: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني}. فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأنزل معه الكتاب بالحق - ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته - محال مع هذا وغيره: أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا وما يجوز عليه وما يمتنع عليه. فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يُحكِموا هذا الباب

اعتقادًا وقولاً ومن المحال أيضًا أن يكون النبي ﷺ قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة، وقال ﷺ: {تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك} وقال - ﷺ - فيما صح عنه أيضًا: {ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم}. وقال أبو ذر: لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا. وقال عمر بن الخطاب: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا فذكر بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه} رواه البخاري. ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين - وإن دقت - أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب.

بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية. فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مُسكة من إيمان وحكمة ألا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام؟ ثم إذا كان قد وقع ذلك منه، فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه.

ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة - القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق وكلاهما ممتنع...".

- إذن نستطيع أن نقول هذا هو أساس منهج ابن تيمية: أن الرسول بلغ النصوص الدينية أوضح بلاغ يحتاجه البشر ويستطيعونه، وعلمه الصحابة

وأئمة التابعين ونقلوه لمن بعدهم، بحيث لا يحتاجون إلى "منهج جديد" ليبين لهم هذا؟

+ نعم. وأيضًا أضيف لذلك أن العقل الصريح الخالي من الهوى لا يمكن أن يخالف النقل الصحيح بفهمه الصحيح. و"الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا رُدوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل".

- من يخالفك ماذا يقول؟

+ من يخالفني، لا يرد نصوص القرآن، فلا أحد ممن ينتسب للإسلام يستطيع أن يرد نصوص القرآن، لكنهم يخالفون في فهمه وتفسيره، وفي مرتبته في الاستدلال.

- كيف هذا؟

+ هم أولاً قدموا عقولهم على نصوص القرآن وفهم الصحابة لها. وسموا ذلك: "العقل"

قال ذلك وهو يشد النطق على كلمة العقل، فسألته:

- ولماذا تشدد على كلمة العقل؟

+ أفعل ذلك لأنهم حددوا أشياء بعقولهم اتفقت عليها طائفتهم، ثم قالوا هذا هو "العقل" أو الدليل العقلي. فالدليل العقلي باتفاق العقلاء ليس شيئًا موضوعيًا متفقًا عليه بين العقلاء، بل غالب ما يقال إنه "عقلي" مختلف عليه. ولكي تعلم ذلك انظر إلى اختلاف الفلاسفة واختلاف أهل الكلام لتعرف مصداق ذلك. فلو كان "العقل" شيئًا واحدًا لما اختلفوا هذا الاختلاف.

لمح الشيخ في وجهي الاستغراب من كلامه، فتوقف وكأنه يعطيني الفرصة للاستفهام، فشجعني على السؤال:

- تعني أن هناك ما يسمونه قواعد عقلية وهي في الحقيقة مختلف فيها؟!

+ نعم، وهذا ليس بالقليل[1]. ففي الجملة تقطع كل فرقة من الفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة، بقواطع عقلية يخالفهم فيها غيرهم.

- دعنا نعدْ إلى الموقف الإجمالي لمن يخالفك.

+ نعم من يخالفني يرى أن الأصل في تقرير العقائد فيما يتعلق بالله هو العقل، فهم يرون أن العقل قادر على تقرير ما يجوز على الله وما لا يجوز، ثم تفسر النصوص الشرعية بناء على ما يقرره العقل.

- وأنت ترى أن العكس هو الصحيح، وأنه يجب أن يُبدأ بالنصوص وتفهم وتعقل كما فهمها السلف، ثم ما وافقها فهو العقل ويقبل وما خالفها فيرد.

+ نعم. وكل ذلك بسبب الاعتقاد بعدم كفاية المنهج القرآني وطريقة السلف في إفادة العلم، وبسبب تحسين بعض العلماء الظن بالطريقة المنطقية اليونانية وتسليطها على النصوص الشرعية مع الجهل بالحديث وآثار السلف. فهم يريدوننا أن ننسف تراث الأجيال الثلاثة المفضلة - الذين ثبت تزكيتهم من النبي ﷺ - وما أجمعوا عليه، ونتركه فقط لأنهم رأوا أن المنطق دلهم على أن العقل يخالفه.

فـ " النظر المفيد للعلم فهو ما كان فيه دليل هادٍ، والدليل الهادي على العموم والإطلاق هو كتاب الله وسنة نبيه [ﷺ]، فإن الذي جاءت به

(١) انظر (إيثار الحق) لابن الوزير اليماني، ص ٣٠٧.

الشريعة من نوعي النظر هو ما يفيد وينفع ويحصّل الهدى، وهو بذكر الله وما نزل من الحق".

وهم لما اتخذوا هذا الموقف بدؤوا يتمحلون الأعذار له، فالرازي، في سياق الاستدلال على تقديم القواعد العقلية على النص الشرعي، يقول إنه لا يمكن الاستدلال بالنص الشرعي في القضايا الأصولية - يعني العقدية - لأن فهمها ينبني على عشرة أمور!

- عشرة! وما هي؟

+ يقول الفخر الرازي: "الدليل اللفظي لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمور عشرة: عصمة رواة تلك الألفاظ، وإعرابها، وتصريفها، وعدم الاشتراك والمجاز والنقل والتخصيص بالأشخاص والأزمنة، وعدم الإضمار والتقديم والتأخير والنسخ، وعدم المعارض العقلي الذي لو كان لرجح عليه إذ ترجيح النقل على العقل يقتضي القدح في العقل المستلزم للقدح في النقل لافتقاره إليه فإذا كان المنتج ظنيًا فما ظنك بالنتيجة " محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين (ص ٧١)؟

- طبعًا أنت رددت هذا القول بشدة.

+ نعم. وردَّه قبلي شهاب الدين القرافي المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة.

- وردّه بعدك تلميذك ابن القيم. بل حتى من المتأخرين ردّه الكوثري المعروف بتعصبه ضدك. لكن، هل لهذا الاختلاف في المنهج أثر عملي؟

+ نعم، ويظهر في قضايا كثيرة، ومنها صفات الله والإيمان والقدر.

- ما سبب الانحراف عن هذا المنهج؟

+ الجهل بسنة رسول الله ﷺ، وصحابته والإعراض عنها. "وإنما جماع الشر تفريط في حق أو تعدٍّ إلى باطل وهو تقصير في السنة أو دخول في البدعة كترك بعض المأمور وفعل بعض المحظور أو تكذيب بحق وتصديق بباطل ولهذا عامة ما يؤتى الناس من هذين الوجهين فالمنتسبون إلى أهل الحديث والسنة والجماعة يحصل من بعضهم كما ذكرت تفريط في معرفة النصوص أو فهم معناها أو القيام بما تستحقه من الحجة ودفع معارضها، فهذا عجز وتفريط في الحق. وقد يحصل منهم دخول في باطل إما في بدعة ابتدعها أهل البدع وافقوهم عليها واحتاجوا إلى إثبات لوازمها، وإما في بدعة ابتدعوها هم لظنهم أنها من تمام السنة، كما أصاب الناس في مسألة كلام الله وغير ذلك من صفاته.

ومن ذلك أن أحدهم يحتج بكل ما يجده من الأدلة السمعية وإن كان ضعيف المتن والدلالة ويدع ما هو أقوى وأبين من الأدلة العقلية إما لعدم علمه بها وإما لنفوره عنها وإما لغير ذلك وفي مقابلة هؤلاء من المنتسبين إلى الإثبات بل إلى السنة والجماعة أيضًا من لا يعتمد في صفات الله على أخبار الله ورسوله بل قد عدل عن هذه الطريق وعزل الله ورسوله ﷺ عن هذه الولاية فلا يعتمد في هذا الباب إلا على ما ظنه من المعقولات. ثم هؤلاء مضطربون في معقولاتهم أكثر من اضطراب أولئك في المنقولات، تجد هؤلاء يقولون إنا نعلم بالضرورة أمرًا والآخرون يقولون نعلم بالنظر أو بالضرورة ما يناقضه. وهؤلاء يقولون العقل الصريح لا يدل إلا على ما قلناه، والآخرون يناقضونهم في ذلك. ثم من جمع منهم بين هذه الحجج أداه الأمر إلى تكافؤ الأدلة، فيبقى في الحيرة والوقف أو إلى التناقض، وهو أن يقول هنا قولاً ويقول هنا قولاً يناقضه كما تجد من حال كثير من

هؤلاء المتكلمين والمتفلسفة. بل تجد أحدهم يجمع بين النقيضين أو بين رفع النقيضين. والنقيضان اللذان هما الإثبات والنفي لا يجتمعان ولا يرتفعان بل هذا يفيد صاحبه الشك والوقف فيتردد بين الاعتقادين المتناقضين الإثبات والنفي كما يتردد بين الإرادتين المتناقضتين وهذا هو حال حذاق هؤلاء كأبي المعالي وأبي حامد والشهرستاني والرازي والآمدي. وأما ابن سينا وأمثاله فأعظم تناقضًا واضطرابًا والمعتزلة بين هؤلاء وهؤلاء في التناقض والاضطراب...".

- قبل أن أسألك عن سبب هذا الاضطراب، ما معنى "تكافؤ الأدلة"؟

+ تكافؤ الأدلة هو أن يصل الناظر إلى مرحلة من التفكير والاستدلال في قضية ما لا يستطيع فيها ترجيح دليل على آخر، من الأدلة المتعارضة على المسألة، بحيث تتساوى عنده الأدلة، فيقف محتارًا. وهذا يحدث كثيرًا في الاستدلالات العقلية الصرفة.

- نعود إلى سبب الاضطراب.

+ "... وسبب ذلك [الاضطراب هو] جعل ما ليس بمعقول معقولاً لاشتباه الأمر ودقة المسائل وإلا فالمعقولات الصريحة لا تتناقض والمنقولات الصحيحة عن المعصوم لا تتناقض وقد اعتبرت هذا في عامة ما خاض الناس فيه من هذه الأمور دقيقها وجليلها فوجدت الأمر كذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله". وقد اعتمدوا في ذلك كثيرًا على المنطق، وجعلوه حكمًا عند الخلاف.

- ألا ترى أن الأمر معقد، وليس بالسهل؟

+ بلى، "وقد يشكل الشيء ويشتبه أمره في الابتداء فإذا حصل الاستعانة بالله واستهداؤه ودعاؤه والافتقار إليه أو سلوك الطريق التي أمر

بسلوكها، هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم".

- ما الواجب في نظرك على المسلم؟

+ "... فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان. وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، فإن مواقع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ... والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجماع ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف، فإن الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه".

فالواجب أن يكون الحكم عند الاختلاف هو الرد لله ولرسوله ﷺ، وليس الإغراق في الجدل والاعتماد على المنطق.

توقفت هنا وفي نفسي سؤال يقلقني، ويثور فيه خلاف كثير بين المعاصرين، لكني خشيت أن يغضب الشيخ، لأنه دائمًا يحتدّ عند الحديث عنه، كما أني أردت أن أسمع إجابته وأنا متهيئ الذهن. فلذا ودعت الشيخ، قائلاً:

- أعتذر منك الآن لبعض الأعمال، وسأعود لاحقًا في موضوع هام، وهو مثل التتمة لما ذكرناه.

لم يجبني، بل هز رأسه برفق، ثم اختفت صورته. وقد قررت أن أسأله في الجلسة القادمة عن المنطق.

المنطق

لم يكن عسيرًا عليَّ أن أقرر أين أجد الشيخ للحديث عن المنطق. فللشيخ كتابان في الموضوع: (الانتصار لأهل الأثر) وقد طبع أولاً باسم (نقض المنطق)، وكتاب (الرد على المنطقيين) ويسمى أيضًا (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان). والكتاب الأول كالمقدمة للثاني، فهو يمهد لبيان منهج السلف وينتقد المنهج المنطقي بشكل إجمالي، بينما في الكتاب الثاني نقد المنطق نقدًا مفصلاً.

فتحت كتاب (الرد على المنطقيين) فتبدت لي صورة الشيخ وهو مطرق يفكر، وكان بين فترة وأخرى يغمض عينيه. أحس بي، فرفع رأسه إلي، فقلت له:

- أكثرتَ من ذكر المنطق، هل توجز لي ما هو، وما اعتراضك عليه؟ فكثير يدعون الآن إلى تعلمه وإلى التفكير المنطقي!

+ المنطق هو نظام استدلال، أو هو باصطلاحكم المعاصر مهارات التفكير أو فن التفكير والاستدلال، الذي كان سائدًا في العصور القديمة.

- من الذي أنشأه؟ ولماذا؟

+ الذي أنشأه أرسطو الفيلسوف اليوناني المعروف. وبالتأكيد كان الناس يفكرون قبل أن يوجد أرسطو، لكن أرسطو كان مشغولاً فيما يبدو بضبط الاستدلال وتنظيم الحجج، حتى يتخلص من مشكلات السوفسطائيين.

- من هم السوفسطائيون؟

+ هم قوم كانوا قبل أرسطو يجادلون بهدف تخطئة الخصم وبيان عدم دقته وتشكيكه في معارفه. فحاول أرسطو وضع أسلوب للاستدلال يرى أنه دقيق وصارم بحيث تكون الأمور واضحة في ذاتها وتكون القضايا صحيحة في أدلتها.

-إذن هو أنشأه لضبط الاستدلال بشكل عام؟

+ نعم، فالمنطق نظام تفكير واستدلال نظري عام، ولذلك يسمى صوريًّا.

- وما معنى ذلك؟

+ معناه أنه يتعامل مع المجردات والكليات وليس مع الأشياء العملية التفصيلية والواقعية. فهو يهتم بصورة الاستدلال لا مادته ومحتواه. فبشكل عام يهتم المنطق بشيئين رئيسين: التعريف الدقيق للأشياء، بطريقة محددة اصطلحوا عليها، بحيث عندما ننطق كلمة تكون واضحة لا تشتبه بغيرها، ويسمى هذا (التصور). ويهتم بدقة الاستدلال الاستنباطي القياسي، الذي ينتقل من مقدمات كبرى وصغرى إلى نتيجة، ويسمى (التصديق)

- هذا جيد ما المشكلة فيه؟

+ من حيث المبدأ هذا لا بأس به. لكن المشكلة هو أن أنصاره من الفلاسفة وأهل الكلام جعلوه هو الطريقة الوحيدة للتفكير والاستدلال الصحيح، وأدخلوه في العلوم الإسلامية وجعلوه حاكمًا عليها، بحيث يستخدم في الاستدلال على القضايا الغيبية وخاصة ما يتعلق بصفات الله. فأرجو أن تفرق بين المنطق من حيث هو تفكير ونظر ومن حيث هو نظام تفكير خاص نشأ في بيئة خاصة ومن تفكير شخص معين.

"فأنا كنت دائمًا أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد. ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة، لما رأينا من صدق كثير منها، ثم تبين لي فيها بعدُ خطأ طائفة من قضاياه، وكتبت في ذلك شيئًا، ولما كنت بالإسكندرية اجتمع بي من رأيته يعظم المتفلسفة بالتهويل والتقليد، فذكرت له بعض ما يستحقونه من التجهيل والتضليل. واقتضى ذلك أني كتبت في قعدة بين الظهر والعصر من الكلام على المنطق ما علقته تلك الساعة...".

"... فيجب الفرق بين ما يقف معرفة الحق عليه ويحتاج إليه وبين ما يعرف الحق بدونه ولكن قد يزال به بعض الأمراض ويقطع به بعض المعاندين والله سبحانه أعلم. وكثير من النظار يسلك في معرفة المطلوب طريقًا يقولون لا طريق إلا هو وكذلك في الحدود وقد تكون تلك الطريق فاسدة وقد تكون صحيحة ولكن للناس طرق أخرى كما قد يقوله كثير منهم في معرفة الصانع أو معرفة صدق رسوله أنه لا طريق إليها إلا هذه الطريق ويكون للناس طرق خير منها.

وكنت قد علقت الكلام على أهل المنطق في مجلس واحد بسرعة لسبب اقتضى ذلك ثم بعد مدة نظرت في كتاب الآراء والديانات لأبي محمد الحسن بن موسى النوبختي فرأيته قد ذكر نحو هذا المعنى عمن تقدم من متكلمي المسلمين...".

- إذن أنت إشكالك في إدخاله في العلوم الإسلامية؟

+ أنا نقدي للمنطق من جهتين، للمنطق في ذاته ففيه ثغرات وجوانب نقص، ولا يجوز جعله طريق الاستدلال الوحيد؛ وأيضًا في إصرار بعض

المتكلمين على جعله حاكمًا على القضايا الشرعية خاصة القضايا المتعلقة بالله وصفاته واليوم الآخر. فأنا أرى أنه يمكن أن يعرف الإنسان الشيء من غير الحد - التعريف - المنطقي. كما أنه يمكن الاستدلال على القضايا من غير الاستدلال المنطقي القياسي، كما أن الاستدلال المنطقي قد لا يكون صحيحًا في الواقع، لأنه صوري. وقد ألفت في هاتين النقطتين كتابي (الانتصار لأهل الأثر) ويعرف أيضًا ب (نقض المنطق) وقد كتبته وأنا مسجون في الإسكندرية[1]، وكتاب (الرد على المنطقيين) وبينت فيه رأيي بالتفصيل.

- هل تعني أن المنطق لا يفيد في القضايا الإلهية؟

+ "... أقيستهم قد يستغنى عنها، كما قد يتفطن بها بعض الناس لما كان ذاهلاً عنه [فيما يتعلق بالله]، لكن مع إمكان أن يتفطن بدونها، ومع ذلك فلا تفيد المعرفة الضرورية التي تحصل بالفطرة أو بالآيات أو بقياس الأولى... لكن تفيد نوعًا من المعرفة القاصرة...". فهو طريقة يمكن استخدامها للاستدلال على وجود الله وعلى صفاته، لكن فيها قصور، ويوجد ما هو أكثر إفادة لليقين منها. "بل وجدنا بالاستقراء، أن الخائضين في مثل هذه الصناعة أكثر الناس شكًّا واضطرابًا وأقلهم علمًا وتحقيقًا...".

- هل لك أن تجمل لي اعتراضك على المنطق؟

+ يمكن أن يُجمل اعتراضي على المنطق في أربع قضايا أساسية: الأولى حصرهم تصور الأشياء في الحد (التعريف المنطقي)، والثانية قولهم إن هذا الحد يفيد اليقين، والثالثة حصرهم الاستدلال في القياس المنطقي، والرابعة قولهم إن هذا الاستدلال هو الذي يفيد اليقين، ولا

(١) الانتصار لأهل الأثر، حاشية المحقق ص ١٧.

شيء سواه، ولو كانت نصوصًا شرعية. وفصلت في بيان ذلك ومناقشته في كتابي الذي سمّي بعدُ (نقض المنطق).

- إذن أنت ترى تحريمه؟

+ قال بتحريمه علماء كبار، ومنهم العالم الشافعي ابن الصلاح (توفي ٦٤٣) وأنا لم أقل بتحريم استخدامه، فهو أسلوب في الاستدلال قد ينتفع به بعض الناس، في بعض القضايا، إنما أقول بعدم صلاحية استخدامه في تحديد القضايا الدينية وما يقبل منها وما يرد.

فالمنطق "من قال: إنه فرض كفاية وإن من ليس له به خبرة فليس له ثقة بشيء من علومه فهذا القول في غاية الفساد من وجوه كثيرة التعداد مشتمل على أمور فاسدة ودعاوى باطلة كثيرة لا يتسع هذا الموضع لاستقصائها. بل الواقع قديمًا وحديثًا: أنك لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر في علومه به ويناظر به إلا وهو فاسد النظر والمناظرة كثير العجز عن تحقيق علمه وبيانه. فأحسن ما يحمل عليه كلام المتكلم في هذا: أن يكون قد كان هو وأمثاله في غاية الجهالة والضلالة وقد فقدوا أسباب الهدى كلها فلم يجدوا ما يردهم عن تلك الجهالات إلا بعض ما في المنطق من الأمور التي هي صحيحة فإنه بسبب بعض ذلك رجع كثير من هؤلاء عن بعض باطلهم وإن لم يحصل لهم حق ينفعهم وإن وقعوا في باطل آخر. ومع هذا فلا يصح نسبة وجوبه إلى شريعة الإسلام بوجه من الوجوه. إذ من هذه حاله فإنما أتى من نفسه بترك ما أمر الله به من الحق حتى احتاج إلى الباطل. ومن المعلوم: أن القول بوجوبه قول غلاته وجهال أصحابه. ونفس الحذاق منهم لا يلتزمون قوانينه في كل علومهم بل يعرضون عنها، إما لطولها وإما لعدم فائدتها وإما لفسادها وإما لعدم تميزها وما

فيها من الإجمال والاشتباه. فإن فيه مواضع كثيرة هي لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل. ولهذا ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمونه ويذمون أهله وينهون عنه وعن أهله حتى رأيت للمتأخرين فتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم...".

- هل أنت أول من نقد المنطق؟

+ بعض المؤلفين يصور هذا لقرائه! طبعًا ربما ليس حبًّا فيّ أو اعترافًا بفضلي...

قال هذا متبسمًا...

+... لكن يريد أن يصور أني أعادي العقل أو أني لم أفهم المنطق. المنطق نقده علماء مسلمون قبلي، نقده القاضي أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨) - رحمه الله - وغيره، ونقده بعض علماء الكلام. أنا ربما كنت أكثرهم توسعًا في النقد وأكثرهم عمقًا، لأنني اطلعت على نقدهم ولأنني كنت مدفوعًا ببيان قدرة العقل المسلم وبيان عظمة نظام التفكير الإسلامي المتمثل في الطريقة القرآنية في الاستدلال، وطريقة العلماء المسلمين المتمثلة في أصول الفقه. وقد كتب بعض المعاصرين لكم أن كثيرًا من العلماء حتى من الغربيين احتفى بنقدي للمنطق، وعدوني من كبار نقاده الذين سبقوا العلماء الغربيين في ذلك، والذين أسهموا في إسقاط المنطق.

"وما زال نظار المسلمين يعيبون طريق أهل المنطق، ويبينون ما فيها من العيّ، واللكنة وقصور العقل وعجز النطق، ويبينون أنها إلى إفساد المنطق العقلي واللساني أقرب منها إلى تقويم ذلك، ولا يرضون أن يسلكوها في

نظرهم ومناظرتهم لا مع من يوالونه ولا مع من يعادونه. إنما كثر استعمالها من زمن أبي حامد، فإنه أدخل مقدمة من المنطق اليوناني في أول كتابه المستصفى وزعم أنه لا يثق بعلمه إلا من عرف هذا المنطق، وصنف فيه (معيار العلم) و (محك النظر) وصنف كتابًا سماه (القسطاس المستقيم)... ثم في آخر أمره بالغ في ذمهم، وبين أن طريقتهم متضمنة من الجهل والكفر ما يوجب ذمها وفسادها أعظم من طرق المتكلمين، ومات [رحمه الله] وهو مشتغل بالبخاري ومسلم..." فـ "... نظّار المسلمين ما زالوا يصنفون في الرد عليهم في المنطق وغير المنطق ويبينون خطأهم فيما ذكروه في الحد والقياس جميعًا كما يبينون خطأهم في الإلهيات وغيرها ولم يكن أحد من نظار المسلمين يلتفت إلى طريقتهم بل المعتزلة والأشعرية والكرامية والشيعة وسائر طوائف النظر كانوا يعيبونها ويثبتون فسادها وأول من خلط منطقهم بأصول المسلمين أبو حامد الغزالي وتكلم فيه علماء المسلمين بما يطول ذكره".

- هل تقول إن المنطق سقط؟!

+ نعم، فهو لم يعد نظام الاستدلال العلمي السائد، بل ربما لم يعد له قيمة إلا عند ورثة علماء الكلام الذين لا يزالون ينفخون في رماده.

- قرأت أن حضارة الغرب المعاصرة لم تنهض إلا بهجرانهم هذا الأسلوب في التفكير والاستعاضة عنه بأسلوب الاستقراء والتجريب، أو ما سماه بيكون (الأورجانون الجديد) في مقابل أورجانون أرسطو القديم.

+ ربما، لكن من المؤكد أن إدخال المنطق في علوم الإسلام جعلها علومًا جامدة، وشجع على هجر النصوص الشرعية، والتقليل من قيمتها، ومكّن للنظر الفلسفي في القضايا الدينية والغيبية

- من أول من أدخله للعلوم الإسلامية؟

كثيرون يرون أنه الغزالي (توفي ٥٠٥) في كتابه (المستصفى)، وبعضهم يرى أنه ابن حزم (توفي ٤٥٦)، فهو أول من ألف فيه. لكن الغزالي على ذكائه وتمكنه من الفقه كان معجبًا بالمنطق إعجابًا كبيرًا، وربما للحالة النفسية الشكية التي مر بها دور في ذلك، خاصة أنه لم يكن عالمًا بعلم الحديث.

- يقول الدكتور علي سامي النشار...

ولم أكد أكمل الاسم إلا ولحظت تغيرًا في وجه ابن تيمية، وهزّ رأسه بلطف.. لكني أكملت:

- ... نقد المسلمون - وتابعهم ابن تيمية - منطق أرسطو لما ينتجه تطبيقه على المسائل الدينية من متناقضات وإنكار. وهؤلاء المناطقة يرون أن القضايا المعلومة بالتواتر أو المتواترة يختص بها من علمها، فما يتواتر عند شخص خاص به وليس خاصًا بغيره. وعلى هذا ينهدم كثير من آثار الدين المتواترة. ولعل هذا كان أكبر ما رنا إليه عبد الله بن المقفع وابنه محمد بن عبد الله حين قدما أول ترجمة للمنطق، وهو إثبات يقينية المنطق بقضاياه العقلية والحسية وإنكار تواتر الدين الذي يعتمد على السماع فقط ..." (مناهج البحث عند مفكري الإسلام - النشار ص ٢١٣).

"ويشير هذا النقد إلى اتجاه عام في نقد ابن تيمية، وهو أن هذا المنطق شيء وضعي اصطلاحي، وليس قانونًا عقليًا [مطلقًا] ملزمًا. فتقاسيمه لم تستقر بعد، ولم تصل لدرجة اليقين النهائي [التي يصورها به أنصاره من علماء الكلام]، بل هي شيء نسبي بين النظار يونانيين كانوا أو مسلمين." (مناهج البحث، النشار ٢٢١).

- هذا جانب واحد..

اكتفى ابن تيمية بهز رأسه ... فبادرته بالسؤال:

- كأني لمحت شيئًا في وجهك عندما ذكرت اسم النشار؟

+ نعم، فهو على اطلاعه على كثير مما كتبت، ورغم ما كتبه في الثناء على ما كتبته وقررته، خاصة في كتابه (مناهج البحث عند مفكري الإسلام) إلا أنه لم يستطع التخلص من ميله للأشاعرة، وأساء إليّ كثيرًا، في كتابه الآخر.. فقد اتهمني بالتجسيم وباتباع مذهب الكرَّامية في ذلك. عفا الله عنه.

- لكن أنصفتك تلميذة له في رسالة أشرف عليها هو بعنوان (التجسيم عند المسلمين - مذهب الكرامية)، وطُبعت في كتاب، فقد قالت فيها إن نصوصًا من كتب ابن تيمية تدل دلالة واضحة على براءته مما اتهم به من التجسيم، وساقت نصوصًا من كتبك. (ص ٩٩).

+ على أي حال هو أثنى كثيرًا عليّ في كتابه (مناهج البحث) وقرر أني سبقت بعض فلاسفة الغرب المعاصرين في بعض القضايا الفلسفية.

- نعم ومما أعجبني قوله: "وهنا تتبين لنا عبقرية ابن تيمية الفكرية. إنه يربط بين نظرية اليونان في العلم الكلي وأنه أشرف العلوم وأن العلم الجزئي علم غير مكتمل، ونظرية متفلسفة الإسلام [الذين قالوا]، متابعين لأرسطو، إن الله يعلم الكليات فقط وإنه لا يعلم الجزئيات. وهكذا أدرك ابن تيمية بعمق الصلة بين المنطق الأرسططاليسي والميتافيزيقيا الأرسططالية..." مناهج البحث ٢٢٤

وقال ص ٢٥٣: ".. وبهذا يسبق ابن تيمية المناطقة الرياضيين المحدثين في فكرتهم أن القياس الأرسططاليسي ليس هو الصورة الوحيدة

العقلية، بل هناك علاقات كثيرة في الذهن وفي الواقع غيره..." بل قال في ص ٢٧٠: "وليس هناك في الحقيقة من تكلم - فيما قبل العصور الحديثة - بما تكلم به ابن تيمية..." ثم ينقل عن الشيخ مصطفى عبد الرزاق قوله: "إن الدراسات المنطقية لو سارت منذ عهد ابن تيمية على نهجه في النقد بدل الشرح والتعمق لكنا بلغنا بها من الرقي مبلغًا عظيمًا".

وقررت باحثة معاصرة تدعى الدكتورة عفاف الغمري أنك سبقت الفيلسوفين المعاصرين ستيوارت مل و برتراند رسل وغيرهما في نقد المنطق التقليدي. (المنطق عند ابن تيمية - عفاف الغمري ص ١٢)

+ الذي أردت أن أقوله أن المنطق ليس هو أسلوب التفكير أو نظام الاستدلال الوحيد، الذي لا يمكن الوصول للحق إلا من خلاله. كما أنه في ذاته فيه عيوب، وليس كما يقول أنصاره. بل الحق يمكن الوصول له بطرق استدلال متعددة وفيها ما هو أفضل من النظام المنطقي. وهذا ما توصل له العلماء والفلاسفة المعاصرون لكم، فهم الآن هجروا المنطق الأرسطي، بل هناك من يقول - كما أشرت أنت - إن الحضارة الغربية لم تنهض إلا بهجران المنطق الأرسطي والاعتماد على المنطق الرياضي والمنهج التجريبي.

- صحيح، يقول صاحب كتاب (الإنسان هو المقياس، ص ٨٣) - وهو من المعاصرين - "كتب كانط [وهو فيلسوف ألماني] "إن المنطق منذ أرسطو لم يعد قادرًا على أن يتقدم خطوة واحدة، وبدا من كل الوجوه أنه جسم مغلق ومكتمل من العقائد" ويضيف هذا المؤلف: "لكن بعد ذلك سرعان ما تبدد هيكل المنطق الذي عمره ألفا عام في انفجار فكري هائل..."، ثم فصل في الجوانب الرئيسة لنقد المنطق الأرسطي، بما لا يخرج عن نقدك له.

+ الحمد لله على توفيقه. وقد لفت انتباهي اسم الكتاب الذي ذكرت. في أي مجال هو؟

- في الفلسفة، فهو يعرض الجدل الفلسفي على مر التاريخ.

+ عنوان ذو دلالة! ففعلاً الفلسفة تنتهي إلى الحيرة وتكافؤ الأدلة والنسبية المطلقة، وعدم القدرة على تحديد ما هو الحق. ولذلك يكون الإنسان هو المقياس. وهنا يأتي ما أكدت عليه كثيرًا من ضرورة الوحي، وأن (النبوة) من أعظم نعم الله على البشر، ولا سعادة لهم إلا بالإيمان. لأن الوحي يكمل ما تعجز عنه طرق الاستدلال الأخرى، ويسددها ويوجهها.

- لماذا إذن يتمسك بعض علماء المسلمين المعاصرين بالمنطق؟

- لأنهم يرون أنه يخدمهم في قواعدهم الكلامية، التي أسست أصلاً بهذا النظام من التفكير أو بنوها اعتمادًا عليه. ثم هذا النظام يساعد على الجدل، وهو ما يميل إليه كثير من علماء الكلام. وقد بسطت الكلام على رأيي ونقدي للمنطق الأرسطي في الكتابين اللذين ذكرتهما.

حديث ابن تيمية عن المنطق أثار في ذهني دعوى يرددها كثيرًا خصوم ابن تيمية، وهي (التناقض) فرأيت أن من المناسب طرحها هنا، فقلت ...

تناقُض ابن تيمية

- أبا العباس! يتهمك خصومك بأنك متناقض

+ ...نعم، يوجد هذا في بعض الكتب التي ألفت حديثًا لمؤلفين مغمورين. لكني لا أعلم أن أحدًا من المتقدمين قال هذا عني، مع أنهم أعرف بي من هؤلاء المتأخرين. وأنا لا أنفي أني قد أخطئ، وقد أقول القول فيكتب عني ثم أعود عنه لسبب من الأسباب، فيظن من لا علم عنده أو من يتبع العورات ولا يريد الحقيقة أني أتناقض. ومن المعلوم أني لم أؤلف كتبي تأليفًا متناسقًا، بل غالب كتبي جمعت بعد موتي، وهي عبارة عن رسائل وفتاوى، وردود. ثم أين يكون التناقض؟ هل هو في المسائل الأصلية التي أقولها، أم أنهم يظفرون بكلمة هنا وكلمة هناك، وقد يكون عامًّا هنا وخاصًّا هناك، مما لا يكاد يخلو منه عالم، فيسارعون للحكم بالتناقض. هل تناقضت في قولي في الصفات؟ أو قولي في أصول مسائل التوحيد؟ ولم لا يطبقون نقدهم لي على شيخهم الرازي؟! فهو على تناقضه الذي اتفق عليه الموافق والمخالف، يعدونه إمامًا في التحقيق والتدقيق. وكذلك الغزالي إمامهم المبجل عندهم، عنده من التناقض الشيء الكثير، مما دعا بعض الباحثين إلى أن يعزوه إلى المرض النفسي الذي ألم به. وانظر في هذا كتاب معاصركم عبد الأمير الأعسم (الفيلسوف الغزالي). لكن الأمر كما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

بل إن كتب المنطق التي يجلونها، تشترط للحكم على القول بالتناقض شروطًا أوصلها بعضهم إلى عشرة شروط! لكنهم لا يطبقونها عندما يحكمون علي بالتناقض!

- بالمناسبة ما رأيك في الرازي؟

-.... الرازي "له نهمة في التشكيك دون التحقيق..." فهو "كثير الاضطراب جدًا، لا يستقر على حال، وإنما هو بحث وجدل، بمنزلة الذي يطلب ولم يهتد إلى مطلوبه، بخلاف أبي حامد [الغزالي] فإنه كثيرًا ما يستقر".

فالرازي "... هذه عادته، يعجز عن مناظرة أهل الباطل،

ويأخذ ما يحتجون به فيحتج به على أهل الحق، فلا ينصف أهل الحق ويتبعهم، ولا يرد أهل الباطل ويدفعهم، وإنما فيه جدال وحجاج لبس فيه الحق بالباطل مع هؤلاء وهؤلاء...".

وجدتها فرصة طالما أنه يتحدث عن الرازي، فسألته:

وماذا عن أبي حامد الغزالي؟

+ وأبو حامد هو يقول عن نفسه "بضاعتي في الحديث مزجاة" (مجموع رسائل الغزالي، قانون التأويل، ص ١٦)، ومن طالع كتابه الإحياء لم يشك في ذلك لحظة! "وأبو حامد مادته الكلامية من كلام شيخه - إمام الحرمين الجويني - في الإرشاد والشامل ونحوهما، مضمومًا إلى ما تلقاه من القاضي أبي بكر الباقلاني لكنه في أصول الفقه سلك في الغالب مذهب ابن الباقلاني مذهب الواقفة وتصويب المجتهدين ونحو ذلك وضم إلى ذلك ما أخذه من كلام أبي زيد الدبوسي وغيره في القياس ونحوه وأما في الكلام فطريقته طريقة شيخه دون القاضي أبي بكر وشيخه في أصول الفقه يميل إلى مذهب

الشافعي وطريقة الفقهاء التي هي أصوب من طريقة الواقفة. ومادة أبي حامد في الفلسفة من كلام ابن سينا ولهذا يقال (أبو حامد أمرضه الشفاء) - يعنون كتاب الشفا لابن سينا - ومن كلام أصحاب رسائل إخوان الصفا ورسائل أبي حيان التوحيدي ونحو ذلك. وأما في التصوف وهو أجل علومه وبه نُبِّل فأكثر مادته من كلام الشيخ أبي طالب المكي، فالذي يذكره في المنجيات في الصبر والشكر والرجاء والخوف والمحبة والإخلاص فإن عامته مأخوذ من كلام أبي طالب المكي لكن كان أبو طالب أشد وأعلى. وما يذكره في ربع المهلكات فأخذ غالبه من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية كالذي يذكره في ذم الحسد والعجب والفخر والرياء والكبر ونحو ذلك".

و"لم يكن أبو حامد ممن يتعمد الكذب، فإنه كان أجل قدرًا من ذلك وكان من أعظم الناس ذكاء وطلبًا للعلم وبحثًا عن الأمور... وله من الكلام الحسن المقبول أشياء عظيمة وبليغة، ومن حسن التقسيم والترتيب ما هو به من أحسن المصنفين. لكن لكونه لم يصل إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الطرق الصحيحة وكان ينقل ذلك بحسب ما بلغه لا سيما مع هذا الأصل الفاسد، إذ جعل النبوات فرعًا على غيرها ... [إذ جعل الكشف طريقًا للعلم، وأصلاً يعتمد عليه]" (بيان تلبيس الجهمية ٦/ ١٢٧)

عندما نفى الشيخ تعمد الكذب عن الغزالي خطر في بالي تهمة يرددها بعض خصوم ابن تيمية، وهي أنه يكذب في بعض ما ينقل، فوجدتها فرصة لأسمع رأيه:

- معاذ الله! وما الذي يدعوني إلى ذلك؟! هذا يقوله أيضًا بعض المفلسين من المعاصرين لكم، لأنهم لما عجزوا أن يقابلوا الحجة بالحجة، لجؤوا إلى التنفير والتشويه. بل إني أقول إني لم أرَ أحدًا يناظر بالكذب مثل كثير من خصومي، خاصة من أتى بعد موتي. فأنا قد أقسو، لكني لا أكذب.

وقد حدث أن اتهمني بعض محققي الكتب المعاصرين لكم ممن يميل إلى خصومي، بأني كذبت، اعتمادًا على كلمة وجداها، فتبين للمحققَين بعد ذلك أن ما قلته هو الصواب. والغريب أن المحقق الذي كشف ذلك نصراني!

- كيف ذلك؟

- نقلت في أحد كتبي كلمة عن الباقلاني في كتابه التمهيد، فيها إثبات الاستواء، فجاء من المعاصرين من حقق كتاب (التمهيد) للباقلاني واعتمدا على كلمة لعالم متعصب معاصر لكم من أشد خصومي، قال: إني أتيت بهذا الإثبات من عندي! فجاء المستشرق مكارثي وحقق التمهيد على عدة نسخ خطية فأثبت ما كنت نقلته وتبين افتراء ذلك الرجل وذينك المحققين علي، وأن الخلل في النسخة التي اطلعا عليها، والحمد لله[1].

- لعلك تقصد زاهدًا الكوثري؟

+ نعم، هو. وقد أفسد هذا الرجل كل الكتب التي حققها بتعليقاته التي تخالف ما أراده أصحابها. كل ذلك بسبب تعصبه لمذهبه، وحنقه على الطريقة السلفية وأنصارها. وقد بين كذبه وتجنيه كثير ممن كتب عنه.

- نعم، وقد اطلعت على كتب كثيرة أشارت لذلك، منها كتاب (بيان تلبيس المفتري محمد زاهد الكوثري) لأحمد الغماري. ورد عليه أيضًا علامة الشام محمد بهجة البيطار في كتاب (الكوثري وتعليقاته)، وقال فيه "وجملة القول أن هذا الرجل (الكوثري) لا يعتد بعقله ولا بنقله ولا بعلمه ولا بدينه، ومن يراجع تعليقاته يتحقق صدق ما قلناه فيه"[2].

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، د. عبد الرحمن المحمود، ٢/ ٥٣٩.

(٢) عن هكذا تحدث ابن تيمية ص ٤٨، وعزاه لصفحة ٩٢ من كتاب البيطار، ولم أهتد إلى موضعه في طبعتي لكتاب البيطار.

وقد أرفق البيطار في كتابه هذا تعليقًا للأستاذ حسام القدسي، وهو ناشر للكتب، في تعليقه على كتاب الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء قال فيه " هذا وقد كان الشيخ محمد زاهد الكوثري يصحح الكتاب ويعلق عليه، ثم أوقفت ذلك صفحة ٨٨ لما اطلعت عليه من دخيلة في علمه وعمله، دفعتني إلى النظر في تعليقاته على النزر من مطبوعاتي بغير العين التي كانت لا تأخذ منه إلا عالمًا مخلصًا، فرأيته في بعضها باحثًا بمادة واسعة، وتوجيه لم يسبق إليه، وهو شطر السبب في إعجابي به، وبما يتأتى إليه من عدم النفاذ إلى أغراضه، وفي بعضها يحاول الارتجال في التأريخ تعصبًا واجتراء، والباقي تعليق ككل تعليق وكلام ككل كلام. وخفت أن أشاركه في الإثم - إذا أنا سكت عن جهله بعد علمه. سقت هذه الكلمة الموجزة معلنًا براءتي مما كان من هذا القبيل..." ثم ساق أمثلة على ذلك.

+ نعم، والله الموعد. وطلابه المتعصبون له كثير منهم مثله، ومنهم من هو أسوأ منه.

- حدث شيء قريب من ذلك.

+ ما هو؟

- أنت دائمًا تنقل الأبيات التي فيها ندم الرازي رحمه الله على اشتغاله بعلم الكلام، وتذكر أنه قال:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥) ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠) - واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠) ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٦٥) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي".

+ نعم وماذا في هذا؟

- شكك كثير من خصومك في هذا العصر في نسبة هذه الأبيات للرازي، واتهموك تصريحًا وتلميحًا باختلاق نسبتها للرازي، حيث إن الكتاب الذي نسبتها له كان نادرًا وتأخرت طباعته. لكنه طبع مؤخرًا بتحقيق بإشراف مؤسسة غربية، وهذه الأبيات فيه، مع اختلاف يسير في ألفاظ العبارة التي ذكرتها بعد الأبيات.

+ الاختلاف اليسير لا يضر، طالما أن المعنى قريب. فأنت تعلم أننا ننقل كثيرًا الكلام مشافهة، وربما نقلناه من نسخة غير النسخة التي وصلت إليكم. وكثيرًا ما يكون للكتاب الواحد أكثر من نسخة وبينها اختلاف. فالعالم يؤلف كتابه ويبيضه أكثر من مرة، فربما زاد فيه ونقص، وربما كان الاختلاف من تصرف النساخ.

- النص في النسخة المحققة التي خرجت مؤخرًا هو:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم قد رأينا من رجال ودولة   فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها   رجال فزالوا والجبال جبال

واعلم أنه بعد التوغل في هذه المضايق والتعميق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق رأيت الأصوب الأصلح في هذا الباب طريقة القرآن العظيم، والفرقان الكريم، وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام أجسام السماوات والأرضين على وجود رب العالمين ثم المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل فاقرأ في التنزيه قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ (محمد: ٣٨) وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١) وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الصمد: ١)، واقرأ في الإثبات قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾(طه: ٥)، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠) وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(فاطر :١٠)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨)، وفي تنزيهه عما لا ينبغي قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٧٩) [ص: ٣٠٦] الآية وعلى هذا القانون فقس".

+ الحمد لله، موضع الشاهد هو هو، والمعنى قريب. وليت أنصاره يأخذون بكلامه ونصيحته. فأنصار أهل الكلام يتجاهلون تمامًا ما يتوصلون إليه في آخر أعمارهم وما يوصون به أتباعهم قبل موتهم. فهم انشغلوا بالهجوم عليّ وتكذيبي - دون بينة - عن تدبر مقصود الرازي من كلامه.

- نعود إلى موضوع تهمة الكذب، هذا يعني أنك لا تنفي عن نفسك التهمة؟

+ لا، ليس كذلك! أنا لا أنفي أني قد أخطئ، وقد أهِمُ، وهذا لا يعيب العالم أبدًا. لكن الكذب نقص في الدين وفي المروءة. لكن عندما يترك الخصوم القضايا الأساسية، ويتركون الحجج والأدلة الواضحة التي أوردها ويتمسكون بأشياء جانبية لا تغير من الواقع شيئًا، فهذا دليل إفلاسهم. وهم كما قال الشاعر عن الراعي وقطاع الطريق: (أوسعتهم شتمًا وساروا بالإبل)! فأنا أحقق وأقرر مذهب السلف، وأنقض مذهب أهل الكلام وهم يشتغلون بأمور جانبية.

- نعم، رأيت لبعض المعاصرين اتهامًا لك بأنك اختلقت المقولة المنسوبة لابن العربي، عن الغزالي (أنه دخل في بطون الفلاسفة فأراد أن يخرج منها فما استطاع) أو عبارة نحو ذلك، ثم وجدت الذهبي الشافعي مؤرخ الإسلام يذكرها عن ابن العربي في كتابه سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٧) في ترجمته الغزالي.

+ على أي حال يمكن أن يسمى هذا وهمًا أو خطأ، لكن القول بأنه كذب تهمة تحتاج إلى دليل. وأنا كما تعلم أكثر تآليفي أمليها من حفظي وكثير منها صنفته في الحبس وليس عندي ما أحتاجه من الكتب[١]. والحمد لله لم يأتوا بدليل واحد صحيح على أني كذبت على أحد.

- صحيح، والوهم لا يسلم منه أحد.

+ على أي حال هنا قضية منهجية يجب التنبه لها، عند نقد عالم أو مجادلة خصم يجب التنبه لأمرين: الأول: النظر للقضايا الأساسية في خلافه مع خصومه، والتوجه لها ولأدلتها. وليس التشغيب بقضايا هامشية فرعية

(١) قاله تلميذه ابن رشيق كما في العقود الدرية .

قابلة للاجتهاد واختلاف وجهات النظر، وقد يكون المجادل لم يفهم وجهة نظري فيها. الثاني: أن يعتمد في أقوالي التي يبدو منها التناقض - فيما يراه هذا الخصم - على نصوصي التي ذكرتها في الكتب التي ألفتها ابتداء وعلى سبيل التقرير. فمن المعلوم أن كتب الرد والمجادلة يعتريها ما يعتريها من الاندفاع في الجدل والإسهاب في إيراد الحجج والتنزّل مع الخصم ونحو ذلك، مما لا يؤمَن معه ألا يتنبه من يكتب إلى بعض جوانب النقص في الحجج الفرعية والمساندة. فالناقد يجب أن يكون عادلاً بحيث لا ينشغل بالاستطراد عن أصل القضية والمسألة الأساسية. وأنا أرى أن أكثر خصومي يوهم أتباعه بانتصارات من هذا النوع. يأتون إلى أشياء جانبية وهامشية وينشغلون بها دون النظر في أصول المسائل الكبار التي أوردها عليهم.

وعلى أي حال "فأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل".

- قلت إن أهل الكلام هم من يقررون العقائد الدينية باستخدام القواعد العقلية والمنطقية. وأنت تخاصم أهل الكلام، فهل يعني ذلك أنك لا تعتمد على الدليل العقلي؟

ضحك ابن تيمية، وقد كانت أول مرة أراه فيها يضحك، لأنه كان يقتصر على التبسم. فخشيت أني أخطأت في السؤال. لمح ذلك في عينيّ، فبادر قائلاً:

+ يُشيع ذلك عني من لم يعرفني ولم يقرأ كتبي. ولا أخفي عليك أنه يتملكني العجب عندما أصادف مثل هذا الاتهام، وأحار كثيرًا في تفسير سبب هذا الخطأ أو هذا البهتان. وأقول البهتان لأن الخطأ إذا كان

ليس له أي سبب، أو صاحبه تساهل في التثبت من المصدر، فإنه أقرب للكذب المتعمد. وقد رأيته كثيرًا خاصة عند بعض المعاصرين لكم ممن تسمونهم مفكرين أو مثقفين. ومشكلة كثير ممن يخالفني ويخاصمني أنه لم يقرأ كتبي، بل ينقل عمن سبقه كلامًا قد لا يكون فهمه أو قد يكون انتزع من سياقه. لكن إذا أردت الحديث عن هذا الموضوع فليكن في كتاب (درء تعارض العقل والنقل).

- حسنًا، وأنا أريد أن أستأذنك لقضاء بعض الأعمال الضرورية

+ لا بأس وستجدني أنتظرك في الكتاب

استأذنت الشيخ فعلاً لإكمال بعض الأعمال الضرورية من جهة ومن جهة أخرى لأراجع الكتاب وبعض الكتب المتعلقة به وأعد بعض الأسئلة. وكتاب درء تعارض العقل والنقل طبع في عشرة مجلدات محققًا وبفهارسه.

ابن تَيَمِيَّة والعقل

عدت للمكتبة بعد قضاء أعمالي وبعد أن أخذت قسطًا من الراحة. وأسرعت إلى كتاب درء تعارض العقل والنقل وأنا مشفق أن ينقطع هذا الحوار، ولذلك كان بودي أني لم أترك الشيخ. فتناولت المجلد الأول من كتاب درء تعارض العقل والنقل وفتحته بلهفة لأرى الشيخ. ويا لسروري عندما ظهر لي الشيخ وقد كان مكبًّا على ورقة، فلم أتمالك نفسي، فقلت له على الفور:

- أنا سعيد برؤيتك، فما زلت أخشى أن ينقطع هذا اللقاء في أي لحظة، فلا أراك ثانية.

أكمل الشيخ الجملة التي كان يكتبها، ثم رفع رأسه إليّ وقال:

+ لا تقلق سوف تراني، فأنا صُنع مخيلتك من هذه الكتب التي تحيط بك. فالكتب ليست ورقًا وأغلفة كما تبدو لأكثر الناس، إنما هي علم ومعان وفِكَرٌ مكتنزة في هذه الرموز التي نسميها كلمات، مخزنة في هذه الكهوف التي نسميها كتبًا.

وأنا أتحدث مع الشيخ دخل علي حفيدي، ذو الاثني عشر شهرًا، يحبو، فأجال بصره في الكتب المركومة حوله وتناول أحدها يلهو به، فتلطفت به وأخذته منه، وأعطيته بدلاً منه لعبة يلهو بها. فنظر إليه الشيخ فتبسم، وأخذ نفسًا عميقًا. لا أدري لماذا تبسم هكذا، وانشغلت بإخراج حفيدي من المكتبة عن أن أسأله عن سبب تبسمه. عدت وقلت للشيخ:

- اشتريت الكتاب - درء تعارض العقل والنقل - منذ أكثر من عشرين سنة، فقرأت فيه، فلم أكد أفهم شيئًا، فتركته. ثم عدت له بعد سنوات فوجدت فيه علمًا غزيرًا وقواعد منهجية لا تكاد توجد في غيره.

+ ينظر كثير من الناس إلى هذا الكتاب على أنه كتاب عقيدة للرد على الرازي والأشاعرة فقط. والصحيح أنه - بالإضافة إلى ذلك - كتاب في المنهج، منهج تلقي النصوص وتفسيرها وفهمها، ومنهج للفهم العقلي بشكل عام. فأساس الخلل الذي لحق بكثير من علماء الإسلام هو تخليهم عن المنهج الذي كان يسير عليه علماء الإسلام منذ الصحابة في فهم النصوص. وقصدت فيه الرد على أهل الكلام بعامة والرازي بخاصة في قانونهم الذي أسموه القانون الكلي في التأويل.

- ما الذي كنت تهدف له في هذا الكتاب؟

+ كنت أريد أن أقول لهم إن قانونكم العقلي هذا ليس صحيحًا، وقد أدى بكم إلى رد نصوص كثيرة من الكتاب والسنة وتحريف معناها وتفريغها من معناها الصحيح. وهو يفتح الباب للتلاعب بالنصوص الشرعية، ويلغي الفهم الصحيح لتلك النصوص الذي سار عليه الصحابة والتابعون. فباختصار أردت أن أبين أن قانونهم ليس بدليل عقلي قوي، وأنه يخالف النصوص الشرعية وأن ما تدل عليه النصوص الشرعية - مما لا تقبله عقولهم - ليس فيه ما يخالف العقل. " والإنسان قد يعتقد صحة قضية من القضايا وهي فاسدة فيحتاج أن يعتقد لوازمها، فتكثر اعتقاداته الفاسدة...".

"... مسمى العقل قد مدحه الله في القرآن في غير آية لكن لما أحدث قوم من الكلام المبتدع المخالف للكتاب والسنة بل وهو في

نفس الأمر مخالف للمعقول وصاروا يسمون ذلك عقليات وأصول دين وكلامًا في أصول الدين صار من عرف أنهم مبتدعة ضلال في ذلك ينفر عن جنس المعقول والرأي والقياس والكلام والجدل فاذا رأى من يتكلم بهذا الجنس اعتقده مبتدعًا مبطلاً...".

- شيخي الكريم، هذا موضوع مهم وحساس، فاعذرني لو أطلت فيه الكلام وكررت السؤال، لأنه ينقل عنك كلام كثير ومتناقض فيه.

+ لا بأس من الإطالة طالما أن فيها فائدة ومزيد بيان، فبعض الأمور ربما تحتاج لبسط أو لأمثلة حتى تتضح.

القانون الكلي للتأويل

- وما هذا القانون؟

- هو قانون تبناه بعض متأخري الأشاعرة يقول (إذا تعارض العقل والنقل - أي النص، ويشمل القرآن والحديث - قدمنا العقل، لأن النقل ثبت بالعقل فالطعن في العقل يؤدي إلى الطعن في النقل). وبناء على هذا القانون يأتون لكل نص يرون أنه يخالف ما تقرره عقول طائفتهم فيقولون لا بد من رده أو تأويله. وبهذا تسلطوا على نصوص الصفات التي لا تحصى في كتاب الله وسنة رسوله فأولوها بحجة أن "ظاهرها" يدل على "التشبيه والتجسيم" وهو ممتنع عندهم بالأدلة العقلية. وهذا كلام خطير!

- وما وجه خطورته؟

- هذا يفرغ الوحي من مضمونه، ويعطله عن هدفه الأساس، وهو البيان والبلاغ والنجاة. ويبطل الحاجة للأنبياء، ويلزم منه تخطئة الصحابة في فهمهم للنص. كما أنه يفتح الباب للتفرق بحسب عقول الناس، فكل طائفة تقرر لها قواعد عقلية وتتفق عليها وترد ما ترى أنه يخالف هذه القواعد بحجة أنها (قواعد عقلية). "ولا ريب أن هذا عمدة كل زنديق ومنافق يُبطل العلم بما بعث الله به رسله، تارة يقول: لا نعلم أنهم قالوا ذلك [أي الأنبياء]، وتارة يقول: لا نعلم ما أرادوا بهذا القول. ومتى انتفى العلم بقولهم أو بمعناه لم يُستفد من جهتهم علم، فيتمكن بعد ذلك أن يقول ما يقول من المقالات وقد أمن على نفسه أن يُعارَض بآثار الأنبياء...".

- إذن أنت قمت بإبطال هذا القانون؟

+ الكتاب في الأساس كان لإبطال هذا القانون، ولكني كثيرًا ما أستطرد في ردودي وأتوسع في النقل، ولذلك قد يرى القارئ في الكتاب أشياء لا علاقة لها مباشرة بهذه القضية. وقد رددت على هذا القانون وبينت بطلانه من أربعين وجهًا، وإن كان بينها تداخل وتشابه من بعض الأوجه، لكن تكثير وجوه الرد والإبطال وإن كان بينها تشابه وتداخل مما يوضح الحجة ويبين قوتها. وعلى أي حال فأنا أكتب في أوضاع غير مستقرة وفي حال لا تكون فيها الكتب متوفرة ولا يكون المكان مهيأً للكتابة.

- نعم لقد قرأتُ أنك كتبت بعض كتبك وأنت في السجن. ووصلت لدرجة أنهم منعوا عنك الورق حتى لا تكتب.

+ لا بد أن يهيئ الله لهذا الدين من يبلغه كما جاء به رسول الله ﷺ.

- أوردتَ في الكتاب كلامًا كثيرًا، وناقشت عددًا من أئمة أهل الكلام، وبحثت فيه عددًا من القضايا العقدية، فهل تلخص لي أهم القضايا في الكتاب.

+ فعلاً الكتاب طويل ومتشعب، ولن أحدثك عن كل القضايا التي فيه، بل سأقتصر على أهم القضايا المتعلقة بالقانون الكلي المذكور. وهي مهمة بالنسبة لي لأنها قضايا منهجية. وسألخص الكلام في نقاط:

- جيد، النقطة الأولى؟

+ تقسيم الأدلة إلى عقلية ونقلية تقسيم غير صحيح. وقد يكون مغالطة منطقية.

- لماذا؟

لأنه ليس في الشريعة ما يحصر الدليل الشرعي في الدليل السمعي (النصي)، بل القرآن والسنة فيهما أدلة سمعية (لا تخالف العقل) وفيهما استدلالات عقلية. فهذه الاستدلالات العقلية شرعية أيضًا، لأن الشرع ذكرها واستدل بها أو نبه عليها أو أذِن فيها.

- إذن أنت ترى أن الدليل الشرعي يكون نصيًّا (سمعيًّا) ويكون عقليًّا؟

+ نعم، نصيّ مثل (استوى على العرش)، وعقلي مثل (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) أو (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) و (قل سيروا في الأرض فانظروا...). فالصواب أن يقال إن الأدلة الشرعية تنقسم إلى عقلية ونقلية، أي القضايا الشرعية أو المسائل الإلهية يستدل لها بالعقل وبالنقل. فالدليل العقلي الصريح دليل شرعي، من حيث الأصل، وكذلك الدليل النقلي أو النصي. وهذان الدليلان لا يمكن أن يتعارضا.

- لكن إذا تعارضا؟

+ المعتبر عند ورود دليل عقلي ودليل نقلي ليس "نوع" الدليل، بل قطعيته. فإذا كان الدليل - سواء العقلي أو النصي - قطعيًّا، وجب رد ما يخالفه، ولا يمكن أن يتعارض دليلان قطعيان. وإذا تيقنا تعارضهما تيقنا أن أحدهما غير قطعي، فإما أن نرجح وإما أن نتوقف.

- جيد، لكن ما مصدر هذا الخلط؟

+ هذا التقسيم فيه تلبيس وإيهام. إذ إن أهل الكلام يطلقون "العقل" بهذا العموم ويقصدون به أدلة خاصة ارتضوها وقواعد اتفقوا عليها، قد يخالفهم فيها ليس فقط أصحاب الدليل النصي، بل حتى من يزعم اتباع

الدليل العقلي. فكثير من الأدلة العقلية للفلاسفة ينكرها المعتزلة وبعض أدلة المعتزلة ينكرها الأشاعرة، وكل منهم يدعي أن أدلته عقلية قطعية. فالصواب إذن أن من يخالف بعض ما يدعيه خصمه من أدلة عقلية معينة ويقف مع النص فهو لا يشكك في الدليل العقلي بإطلاق.

فالدليل العقلي ليس شيئًا واحدًا من رد بعضه رده كله. هذا تصور غير صحيح. بل هي قضايا كثيرة يطلقون عليها (دليلاً عقليًا) منها ما هو صحيح ومنها ما هو غير صحيح أو غير متفق عليه. فإذا رد شخص قاعدة "عقلية" معينة لأنه لا يراها صحيحة، أو لأنه يرى أنها استخدمت بشكل غير صحيح، فلا يعني هذا إطلاقًا أنه يرد الدليل العقلي. وقبولنا لدليل عقلي صحيح لا يعني أننا يجب أن نسلم بكل ما قيل إنه دليل عقلي.

كما أن افتراضهم للتعارض كان بناء على فهمهم للدليل النصي، القائم على أدلتهم العقلية. بينما يمكن أن يُفهم الدليل النصي بطريقة لا تتعارض مع الدليل العقلي الذي يزعمونه. ففهمهم لنصوص الصفات أنها تماثل صفات المخلوقين لا نقول به، وهو خطأ منهم. فنحن نوافقهم على الدليل العقلي، وهو أن الله لا يماثل المخلوق، لكن نخالفهم في فهمهم أن نصوص الصفات تدل على تمثيل الله بخلقه.

- جيد، اتضح موقفك الآن.

+ كما أن هذا القانون سبب لهم إشكالاً كبيرًا، لكنهم يتحاشون الكلام عنه!

- كيف هذا؟

+ افتراضهم التعارض في نصوص الصفات والعقل يفترضه الفلاسفة

في نصوص المعاد أيضًا، ولذلك يؤولون نصوص المعاد تقريبًا بالحجة نفسها. فالفلاسفة يقولون إن نصوص وصف أحداث المعاد يجب تأويلها، وليست حقيقية. وبناء على أصل قانونهم فلا يستطيعون الإنكار عليهم. لأن ما لا تقبله عقولهم في الصفات لا تقبله عقول الفلاسفة في أحوال يوم القيامة.

- وقد يقال الشيء نفسه أيضًا مع الاكتشافات والنظريات العلمية المعاصرة، فكلما ظهرت نظرية وبدا أنها تعارض نصًّا سارعنا إلى رد النص. مع أن هذه النظرية قد تتغير مع تقدم العلم.

+ نعم هذا صحيح، فالمبدأ واحد، فعدم التسليم للنص، ومعارضته بما يُدّعى أنه عقليات، ينافي الإيمان والتسليم. وكل من تعود ذلك تجد أن الإيمان لا يستقر في قلبه، لأنه حتى لو لم يوجد ما يعارض النص عنده الآن، فلا يضمن أنه لن يوجد بعد حين.

- إذن هذا مجمل اعتراضك على هذا القانون في هذا الكتاب؟

+ نعم، وبعد أن بينت اعتراضاتي العقلية على هذا القانون "العقلي"، سقت من الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف الكثيرة في إثبات الصفات التي يرون أنها تخالف أدلتهم العقلية التي يدعون أنها قطعية. وقصدي بذلك التدليل على أن السلف - وهم أئمة الإسلام، الصحابة والتابعون - لم يوافقوهم على أدلتهم العقلية تلك.

- يعني أنك نقضت دليلهم، ثم ذكرت مذهب السلف.

+نعم، ولم أكتفِ بهذا، بل قلبت دليلهم عليهم!

- ماذا يعني هذا؟

+ هم يقولون إن قبول الدليل النصي الذي يعارض الدليل العقلي

(أذكّر: دليلهم الذي اتفقوا على أنه عقلي) يؤدي إلى الطعن في النقل، لأن النبوة - التي هي أصل النقل - ثبتت بالعقل. فيمكن أن يقال لهم: إذا ثبتت النبوة بالعقل، فالعقل يقول إن كل ما يقوله النبي صحيح، حتى لو لم ندركه بعقولنا. فعدم قبولنا لما صح عن الرسول أنه قاله طعن في العقل نفسه.

- إذن أنت لا ترى تقديم العقل على النقل؟

+ هذا كلام مجمل .. وأنا دائمًا أحذر من الكلام المجمل. فالناس يختلفون في تصور العقل ويختلفون أيضًا في تصور المقصود بالنقل. والسبب أن هذه الألفاظ مجملة.

الألفاظ المُجملة

- ماذا تعني بالمجمل؟

+ أعني بالمجمل هنا أن يطلق أحدهم كلامًا عامًّا، مصطلحًا أو عبارة أو جملة، يحتمل حقًّا وباطلاً، أو كلامًا يفهمه كل شخص بطريقة معينة بناء على تصور معين أو سياق معين، دون تفصيل. ومن ثَم لا يمكن إعطاء جواب مطلق. والمتعصب وصاحب الهوى دائمًا يجد بغيته في العبارات المجملة، إما لجهله بها أو بقصد إيهام قارئه لنصرة مذهبه.

- لكن بعض الألفاظ بطبيعتها مجملة؟

+ ولذا يجب أن يوضحها العلماء عند إطلاقها. إلا أن بعض الكاتبين قد يتقصد أن يموه بالكلام المجمل ليلبس على القارئ، ولينتصر في الجدل. "وأهل السنة وإن كانوا يعرفون بعقولهم من المعاني الصحيحة نقيض ما يقوله النفاة فلا يعبرون عن صفات الله بعبارات مجملة مبتدعة ولا يطلقون القول [مثلًا] بأن الله جسم وأنه تحله الحوادث وأنه مركب ولا نحو ذلك، ولا يطلقون من نفي ذلك ما يتناول نفي ما أثبته الرسول ﷺ ودلت العقول عليه، [لأن هذه عبارات صارت مجملة تشتمل بحسب الاستعمال حقًّا وباطلًا]، بل يفسرون المجملات ويوضحون المشكلات ويبينون المحتملات ويتبعون الآيات البينات ويعلمون موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح".

"ولهذا الإجمال والاشتراك الذي يوجد في الأسماء نفيًا وإثباتًا تجد طوائف من المسلمين يتباغضون ويتعادون أو يقتتلون على إثبات لفظ ونفيه،

والمثبتون يصفون النفاة بما لم يريدوه، والنفاة يصفون المثبتة بما لم يريدوه، لأن اللفظ فيه إجمال واشتراك يحتمل معنى حقًا ومعنى باطلاً. فالمثبت يفسره بالمعنى الحق والنافي يفسره بالمعنى الباطل، ثم المثبت ينكر على النافي بأنه جحد من الحق، والنافي ينكر على المثبت أنه قال على الله الباطل، وقد يكون أحدهما أو كلاهما مخطئًا في حق الآخر، وسبب ذلك مع اشتراك اللفظ نوع من جهل ونوع من ظلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله".

- نعود إلى سؤالي عن تقديم العقل على النقل

+ أنا أقول العقل الصريح الذي يتفق العقلاء عليه، وليس فقط طائفة معينة، لا يمكن أن يخالف نقلاً صحيحًا ثابتًا عن رسول الله ﷺ. ولو تعارضا فلا بد أن يكون أحد أربعة أمور: إما أن القاعدة العقلية غير متفق عليها وغير صحيحة، أو أن النقل لم يصح عن النبي ﷺ، أو أن المعنى الذي فسرنا به النص غير صحيح، أو أن القضية لا تدخل تحت حكم العقل أصلاً مثل قضايا اليوم الآخر الغيبية، ولا بد أن يكون له معنى منقول آخر يفسره. وعليه إذا تعارضا فقطعية الدليل العقلي مؤشر على عدم صحة الدليل النقلي إلا القضايا الغيبية التي أشرنا إليها سابقًا، وصحة الدليل النقلي مؤشر على عدم صحة الدليل العقلي الذي يعارضه. الإشكال الذي وقع فيه أهل الكلام أنهم يقدمون ما يرونه صحيحًا عندهم من القواعد العقلية على النصوص دون أن يتبينوا قطعيتها وثبوتها ودون أن يتحققوا من معناها الصحيح. فـ"...أهل الفلسفة والكلام أعظم الناس افتراقًا واختلافًا، مع دعوى كل منهم أن الذي يقوله حق مقطوع به قام عليه البرهان ...".

شعرت أني مدفوع لمقاطعة الشيخ، فقلت:

- إذن أنت تنفي أن يتعارض العقل والنقل؟

رفع رأسه، وتوقعت أن ينهرني، لكنه واصل حديثه بهدوء قائلاً:

+ "قد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزانًا يزن به العبد الواردات، فيفرق به بين ما هو من قبيل الحقّ، وما هو من قبيل الباطل، ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده، فكيف يقال إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟ هذا باطل قطعًا، يشهد له كل عقل سليم، لكن: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]". فخالق العقل والذي دعا إلى استخدامه في معرفة الحق هو الذي أنزل الوحي على نبيه ﷺ. "ومن تبحر في المعقولات ... تبين له أن العقل الصريح أعظم الأشياء موافقة لما جاء به الرسول ﷺ...".

هدوء الشيخ في ردة فعله على مقاطعتي جعلني أسأل:

- هل لي بمثال ليتضح الكلام؟

- "لو قال قائل إنه يعلم ... بالأخبار عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ... أن الواحد ليس نصف الاثنين وأن الواجب لذاته يكون ممتنعًا لذاته وأن المخلوق يماثل الخالق في الحقيقة وأن الوجود كله ممكن الوجود ليس في الوجود وجود واجب ولا وجود قديم، ونحو ذلك من القضايا التي يعلم العقل وجوبها وامتناعها وإمكانها، فمن ادعى أنه يعلم ... بالخبر عن الأنبياء عليهم السلام ما ينافي هذا كانت الدعوى باطلة"(١).

- يعني أنك تفرق بين القواطع العقلية التي يتفق عليها العقلاء وبين ما يقرره بعض الناس على أنه "دليل عقلي".

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٣٦١.

+ نعم، لأن كل طائفة تدعي أن لديها قواطع عقلية، بينما تكون هذه القواطع خاصة بها، لكن لا يوافقها عليها بقية الطوائف.

"... فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل..." ...

أعجبتني هذه العبارة، فقاطعت الشيخ دون أن أشعر وكررت عبارته مقررًا له:

- فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل؟

فهز رأسه موافقًا ثم واصل حديثه:

+ "... ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً. فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة...".

- لكن ما مصدر ما شاع عنك وعن أصحاب المنهج الأثري بعامة من أنهم لا يعتمدون العقل؟

+ سببه، عدم الفهم من جهة، ومن جهة أن أهل الكلام ينسبون الأقوال للناس بلازم كلامهم. وهذا ما وقع فيه الأشاعرة أيضًا. فهم إذا رأوا أن خصمهم "يلزم من كلامه رأي معين" بحسب أصولهم، لا يترددون في نسبته إليه على أنه قوله الذي يقول به. فأهل الكلام "يسمعون أهل الإيمان من أهل الحديث والسنة والجماعة والفقهاء والصوفية يقولون: الكتاب والسنة، وإذا تنازعوا في مسألة من موارد النزاع بين الأمة، في مسائل الصفات أو القدر أو نحو ذلك، قالوا: بيننا وبينكم الكتاب والسنة. فإذا

قال لهم ذلك المنازع بيننا وبينكم العقل، قالوا: نحن ما نحكم إلا الكتاب والسنة..."[1] فيقول أهل الكلام: بموجب رأيهم: يلزم من هذا أنهم لا يعتبرون العقل ولا يعتمدون عليه. وهذا غير صحيح.

- هذا واضح، أدركت الآن. أنت ترى أنه لا تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح، وأن كل ما جاء في النصوص الصحيحة النقل إذا فُهم فهمًا صحيحًا فإنه لا يعارض النظر العقلي الصحيح.

+ نعم. لكن أيضًا يجب التنبه إلى الفرق بين ما تحار فيه العقول وما تحيله العقول.

- وضح لي هذه.

+ "يجب الفرق بين ما يقصر العقل عن دركه وبين ما يعلم العقل انتفاءه، بين محارات العقول ومحالات العقول. فإن الرسل صلوات الله عليهم وسلامه قد يخبرون بمحارات العقول - وهو ما تعجز العقول عن معرفته - ولا يخبرون بمحالات العقول - وهو ما يعلم العقل استحالته."[2] فبعض الناس لا يفرق بين ما يستحيل عادة، وما يستحيل عقلاً. فـ "الدلائل الصحيحة لا تتناقض، لكن قد يخفى وجه اتفاقها أو ضعف أحدها على بعض العلماء".

"والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، ولم تأت بما يعلم العقل امتناعه، لكنِ المسرفون [من أهل الكلام والمتفلسفة] قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحجج عقلية بزعمهم، اعتقدوها حقًا وهي

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٢/ ١٣٢.

(٢) بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٣٦١.

باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به، والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة ودخلوا في أحوال وأعمال فاسدة وخرجوا عن التمييز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم".

وقبل أن أسأل، كأن الشيخ تنبه إلى أمر مهم، فواصل كلامه موضحًا:

+ لكن "من الناس من ألف قولاً واعتاده وتقلده عن بعض المعظمين في قلبه... فيكون هذا التقليد مانعًا له من أن يكون عقله صريحًا... فالعقل الصريح قليل في بني آدم، لكن علامته متابعة ما جاءت به الرسل عن الله تعالى فإن العقل الصريح لا يخالف ذلك قط...".

"ولما علم الله أن بني آدم يصل الأمر بينهم في المناظرات إلى هذا الحد، وكانوا يدعون وجدًا وعلمًا ضروريًا، إما صادقين في ذلك، وهم غالطون لا يعرفون وجه غلطهم، وإما كاذبين في ذلك، أرسل رسله وأنزل كتبه وأمرهم أن يحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، لهذا لا يقطع النزاع بين بني آدم إلا بالنبي والرسول وحاجتهم إلى ذلك ضرورية...".

- إذن أنت ترى أن من أسباب توهم التعارض بين العقل والنقل سوء الفهم؟

+ نعم، لأن "دلالات النصوص قد تكون خفية، فخصّ الله بفهمها بعض الناس، كما قال علي [رضي الله عنه] إلا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه. وقد يكون النص بينًا ويذهل المجتهد عنه..."، "... فإن إدراك الصفات المؤثرة في الأحكام على وجهها ومعرفة الحكم والمعاني التي تضمنتها الشريعة منه أشرف العلوم، فمنه الجلي الذي يعرفه كثير من الناس ومنه الدقيق الذي لا يعرفه إلا خواصهم ...".

- يعني أن الأمر يحتاج إلى إعمال العقل؟

+ نعم، بلا شك. "بل العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلاً بذلك...". "ومن العجب أن أهل الكلام يزعمون أن أهل الحديث والسنة أهل تقليد ليسوا أهل نظر واستدلال، وأنهم ينكرون حجة العقل وربما حكوا إنكار النظر عن بعض أئمة السنة، وهذا مما ينكرونه عليهم. فيقال لهم: ليس هذا بحق، فإن أهل السنة والحديث لا ينكرون ما جاء به القرآن، هذا أصل متفق عليه بينهم، والله قد أمر بالنظر والاعتبار والتفكر والتدبر في غير آية، ولا يعرف عن أحد من سلف الأمة وأئمة السنة وعلمائها أنه أنكر ذلك، بل كلهم متفقون على الأمر بما جاءت به الشريعة من النظر والتفكر والاعتبار والتدبر وغير ذلك، ولكن وقع اشتراك في لفظ "النظر والاستدلال" ولفظ "الكلام"، فإنهم أنكروا ما ابتدعه المتكلمون من باطل نظرهم وكلامهم واستدلالهم، فاعتقدوا أن إنكار هذا مستلزم لإنكار جنس النظر والاستدلال ...".

"وهذا مما يبين أن ما جاءت به الرسل هو الحق، وأن الأدلة العقلية الصريحة توافق ما جاءت به الرسل وأن صريح المعقول لا يناقض صحيح المنقول، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه، وما يدخل في العقل وليس منه ...".

"وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدّهم نظرًا، ويعميه [الله] عن أظهر الأشياء، ويكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرًا ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به. فمن اتكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خُذل...".

".. فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجْده؛ فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، [...] فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به؛ ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس، ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل، فضلاً عن أن يقول: فيجب تقديم العقل. والنقل يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين إما أن يُفوَّض وإما أن يُؤوَّل. ولا فيهم من يقول: إن له ذوقًا أو وَجْدًا أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث، فضلاً عن أن يَدَّعِي أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول، وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته. أو يقول: الولي أفضل من النبي، ونحو ذلك من مقالات أهل الإلحاد؛ فإن هذه الأقوال لم تكن حدثت بَعْدُ في المسلمين [...]. ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها، فإن سنة رسول اللّه ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه، وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخًا لها، فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل...".

- اتضح الأمر لي الآن.

+ إذا فهمت هذا، تبين لك أن "... الأصل الذي افترق فيه المؤمنون بالرسل والمخالفون لهم تقديم نصوصهم على الآراء وشرعهم على الأهواء، وأصل الشر في تقديم الرأي على النص. فمن نور الله قلبه فرأى

ما في النص والشرع من الصلاح والخير، وإلا فعليه الانقياد لنص رسول الله ﷺ وشرعه وليس له معارضته برأيه وهواه..." منهاج السنة ٨/ ٤١١

"وأصل ضلال من ضل هو بتقديم قياسه على النص المنزل من عند الله، وتقديم اتباع الهوى على اتباع أمر الله.". فـ "موارد النزاع لا تفصل بين المؤمنين إلا بالكتاب والسنة وإن كان أحد المتنازعين يعرف ما يقوله بعقله، وذلك أن قوى العقول متفاوتة ومختلفة، وكثيرًا ما يشتبه المجهول بالمعقول، فلا يمكن أن يفصل بين المتنازعين قول شخص معين ولا معقوله، وإنما يفصل بينهم الكتاب المنزل من السماء والرسول المبعوث المعصوم فيما بلّغه عن الله..." بيان تلبيس الجهمية ٢/ ١٣٧

"... أن الطرق العقلية النظرية لا تفصل موارد النزاع، ولا يحصل عليها الإجماع. وهو كما قالوا. فإن الطرق القياسية العقلية النظرية، وإن كان منها ما يفضي إلى العلم فهي لا تفصل النزاع بين أهل الأرض، تارة لدقتها وغموضها وتارة لأن النفوس قد تنازع في المقدمات الضرورية، كما ينازع أكثر النظار في كثير من المقدمات الضرورية. ولهذا لم يأمر الله عند التنازع إلا بالرد إلى الكتب المنزلة..." الدرء ٩/ ١٧.

" فإن الله تعالى نصب على الحق الأدلة والأعلام الفارقة بين الحق والنور وبين الباطل والظلام، وجعل فطر عباده مستعدة لإدراك الحقائق ومعرفتها، ولولا ما في القلوب من الاستعداد لمعرفة الحقائق لم يكن النظر والاستدلال ولا الخطاب ولا الكلام... ففي القلوب قوة تفرق بين الحق والباطل..." (الدرء ٥/ ٦٢)

اتباع السلف

- أنت ترى أن منهج أهل الكلام باطل، فما المنهج الذي تراه؟

+ المنهج الذي أراه وأدعو له، وأرى أنه يعصم بإذن الله من الضلال والتفرق هو اتباع منهج السلف في تلقيهم وفهمهم للنصوص، واعتقادهم وعبادتهم. فهو منهج سهل بعيد عن التكلف، يناسب كل الناس، ويناسب فطرية الدين.

- ومن هم السلف؟

+ السلف هم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، أي السائرون على طريقتهم. وهم الذين يشملهم قول الله تعالى: "... ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة: ١٠٠]. فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ [الأنفال:٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)﴾ [الحشر:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)﴾ [الجمعة:٣]. فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم، وهم خير الناس بعد الأنبياء، فإن أمة محمد

خير أمة أخرجت للناس، وأولئك خير أمة محمد، كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي ﷺ قال: (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم).

ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيرًا وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله، كالتفسير وأصول الدين، وفروعه، والزهد، والعبادة، والأخلاق، والجهاد، وغير ذلك؛ فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة، فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم. وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصومًا، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم، فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم، ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾..." [النساء:٥٩]. (الفرقان بين الحق والباطل ١٥ طبعة الأرناؤوط)

"... وأما المتأخرون، الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم، ولا لهم خبرة بأقوالهم وأفعالهم، بل هم في كثير مما يتكلمون به في العلم ويعملون به، لا يعرفون طريق الصحابة والتابعين في ذلك، من أهل الكلام والرأي والزهد والتصوف، فهؤلاء تجد عمدتهم في كثير من الأمور المهمة في الدين إنما هو بما يظنونه من الإجماع، وهم لا يعرفون في ذلك أقوال السلف البتة، أو عرفوا بعضها ولم يعرفوا سائرها، فتارة يحكون الإجماع ولا يعلمون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف

المتأخرين؛ طائفة أو طائفتين أو ثلاث، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف، والأول كثير في [مسائل أصول الدين وفروعه] كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك، يحكون إجماعًا ونزاعًا، ولا يعرفون ما قال السلف في ذلك البتة، بل قد يكون قول السلف خارجًا عن أقوالهم، كما تجد ذلك في مسائل أقوال اللّه وأفعاله وصفاته، مثل مسألة القرآن والرؤية والقدر وغير ذلك ..." (الفرقان بين الحق والباطل ١٥ طبعة الأرناؤوط).

"ثم إن أكثر المتعمقين في العلم من المتأخرين يقترن بتعمقهم التكلف المذموم من المتكلمين والمتعبدين، والهوى والقول والعمل بلا علم، وطلب ما لا يدرك. وأصحاب محمد ﷺ كانوا - مع أنهم أكمل الناس علمًا نافعًا وعملاً صالحًا - أقل الناس تكلفًا، تصدر من أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ما يهدي به الله أمة، وهذا من منن الله على هذه الأمة. وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات ما هو من أعظم الفضول المبتدعة والآراء المخترعة، لم يكن لهم ذلك سلف إلا رعونات النفوس المتلقاة ممن ساء قصده من الدين".

- وهل الخَلَف لا يوافقون على ذلك؟

+ غالبًا يُقرّ المتقدمون من علماء الكلام بصحة مذهب السلف، ويرونه هو الحق الصريح، فمثلاً الغزالي يقول في إلجام العوام، وهو من آخر ما كتب: "واعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف، أعني مذهب الصحابة والتابعين، وها أنا أورد بيانه وبرهانه". (مجموع رسائل الغزالي - إلجام العوام ص ٤٢). ويقول مثل هذا الكلام البيهقي والخطابي ونحوهما، كلهم يقرر هذه القاعدة، ويصوّب طريقة السلف ويرى اتباعها.

- كلام جميل! إذن أين المشكلة؟

+ المشكلة أنهم يغلطون في التطبيق وفي التفاصيل. فالغزالي لا يطبق مقتضى كلامه هذا. فهم لا يعرفون حقيقة مذهب السلف. بل تصوروه بما يناسب عقائدهم ويتمشى مع علم الكلام.

- كيف نعرف قول السلف؟

+ طريقة السلف ليست شيئًا يُخترع. طريقة السلف محفوظة في كتب الحديث بأنواعها. فمن أرادها وجدها. ومن درس كتب الحديث استطاع أن يكوّن صورة واضحة عن كثير من المسائل التي ثار فيها الخلاف بين الأمة. وكما قلت لك، كثير من خلاف العلماء كان بسبب نقص معرفتهم بالآثار عن النبي ﷺ وعن صحابته.

"ومن المعلوم أن مذهب السلف إن كان يعرف بالنقل عنهم فليرجع في ذلك إلى الآثار المنقولة عنهم وإن كان إنما يعرف بالاستدلال المحض بأن يكون كل من رأى قولاً عنده هو الصواب قال: " هذا قول السلف لأن السلف لا يقولون إلا الصواب وهذا هو الصواب " فهذا هو الذي يجرئ المبتدعة على أن يزعم كل منهم: أنه على مذهب السلف فقائل هذا القول قد عاب نفسه بنفسه حيث انتحل مذهب السلف بلا نقل عنهم بل بدعواه: أن قوله هو الحق.

وأما أهل الحديث فإنما يذكرون مذهب السلف بالنقول المتواترة يذكرون من نقل مذهبهم من علماء الإسلام وتارة يروون نفس قولهم في هذا الباب كما سلكناه في جواب الاستفتاء. فإنا لما أردنا أن نبين مذهب السلف ذكرنا طريقين، أحدهما: أنا ذكرنا ما تيسر من ذكر ألفاظهم ومن

روى ذلك من أهل العلم بالأسانيد المعتبرة. والثاني: أنا ذكرنا من نقل مذهب السلف من جميع طوائف المسلمين من طوائف الفقهاء الأربعة ومن أهل الحديث والتصوف وأهل الكلام كالأشعري وغيره. فصار مذهب السلف منقولاً بإجماع الطوائف وبالتواتر لم نثبته بمجرد دعوى الإصابة لنا والخطأ لمخالفنا كما يفعل أهل البدع".

- ولماذا التقيد بطريقة السلف؟

+ لثلاثة أمور رئيسة: الأول أننا مأمورون بذلك في نصوص كثيرة من القرآن. والثاني أنهم هم الجيل الذين زكاهم القرآن، ومات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فهم النموذج المحتذى. والثالث أن هذا هو الذي يقلل الخلاف إلى أبعد حد، بل يكاد يزيله فيما يتعلق بأمور العقائد. فالسلف وإن اختلفوا في العبادات والأمور العملية، لكنهم في باب العقائد، وخاصة باب الأسماء والصفات - الذي تفرقت فيه الأمة - هم بحمد الله متفقون على قول واحد. بينما المناهج الفلسفية وما تأثر بها من المناهج الكلامية أو الصوفية تفتح الباب ليستقل كل واحد برأيه، كما نرى في فرق المعتزلة، وكما نرى في كثرة اختلاف الأشاعرة. فنحن نتبع السلف لأن "... الصواب معهم دائمًا، ومن وافقهم كان الصواب معه دائمًا لموافقته إياهم. ومن خالفهم فإن الصواب معهم دونه في جميع أمر الدين، فإن الحق مع الرسول ﷺ، فمن كان أعلم بسنته وأتبع لها كان الصواب معه، وهؤلاء هم الذي لا ينتصرون إلا لقوله ولا يضافون إلا إليه وهم أعلم الناس بسنته وأتبع لها. وأكثر سلف الأمة كذلك، لكن التفرق والاختلاف كثير في المتأخرين ...".

"وإذا كانت سعادة الدنيا والآخرة هي باتباع المرسلين، فمن المعلوم أن أحق الناس بذلك أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك، فالعالمون بأقوالهم

وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة في كل زمان ومكان، وهم الطائفة الناجية من أهل كل ملة، وهم أهل السنة والحديث من هذه الأمة ...".

"والعجب أن هؤلاء المتكلمين إذا احتج عليهم بما في الآيات والأحاديث من الصفات قال: قالت الحنابلة: إن الله كذا وكذا، بما فيه تشنيع وترويج لباطلهم. والحنابلة اقتفوا أثر السلف وساروا بسيرهم ووقفوا بوقوفهم بخلاف غيرهم والله الموفق." (الانتصار لأهل الأثر ٢٦٠)

- لكن يا شيخ الإسلام هناك من يقول: كل يدعي مذهب السلف!

رفع رأسه إليّ وقال بصوت مرتفع عما اعتدته منه:

+ هذا "... يدل على قلة الخبرة بمقالات الناس من أهل السنة والبدعة فإنه قال: (وكذا جميع المبتدعة يزعمون أنهم على مذهب السلف)، فليس الأمر كذلك بل الطوائف المشهورة بالبدعة كالخوارج والروافض لا يدّعون أنهم على مذهب السلف بل هؤلاء يكفرون جمهور السلف. فالرافضة تطعن في أبي بكر وعمر وعامة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وسائر أئمة الإسلام. فكيف يزعمون أنهم على مذهب السلف ولكن ينتحلون مذهب أهل البيت كذبًا وافتراء. وكذلك الخوارج قد كفروا عثمان وعليًّا وجمهور المسلمين من الصحابة والتابعين. فكيف يزعمون أنهم على مذهب السلف؟ " بل إنك تجد في كتب الأشاعرة يذكرون قول السلف، ومذهبهم، ثم يقولون: وقالت الأشاعرة - أو قال أصحابنا - كذا وكذا، ولا يجدون حرجًا في ذلك!!

- إذن أنت ترى أن اتباع السلف ليس مجرد دعوى أو تمنٍّ؟

+ نعم، الكتب موجودة وأقوال السلف وحالهم محفوظة، والجميع يستطيع أن يطّلع عليها. ولا يجوز لمن لم يطلع على كتب السلف ويعرف أحوال الصحابة وخطابهم أن ينسب لهم القول أو الرأي، كما يفعله بعض أهل الكلام.

"فمن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي ﷺ وعادتهم في الكلام وإلا حرف الكلم عن موضعه، فإن كثيرًا من الناس ينشأ على اصطلاح قوم وعادتهم في الألفاظ ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله ﷺ أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله ﷺ أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه ويكون مراد الله ورسوله ﷺ والصحابة خلاف ذلك ...".

" والمقصود التنبيه على أن كل من زعم بلسان حاله أو مقاله: أن طائفة غير أهل الحديث أدركوا من حقائق الأمور الباطنة الغيبية في أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وأمر الإيمان بالله واليوم الآخر وتعرف واجب الوجود والنفس الناطقة والعلوم والأخلاق التي تزكو بها النفوس وتصلح وتكمل دون أهل الحديث فهو - إن كان من المؤمنين بالرسل - فهو جاهل فيه شعبة قوية من شعب النفاق وإلا فهو منافق خالص من الذين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣) وقد يكون من ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ (غافر: ٣٥) ومن ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (الشورى: ١٦). وقد يبين ذلك بالقياس العقلي الصحيح الذي لا ريب فيه - وإن كان ذلك ظاهرًا بالفطرة لكل سليم الفطرة - فإنه متى

كان الرسول أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق وأقومهم قولاً وحالاً: لزم أن يكون أعلم الناس به أعلم الخلق بذلك وأن يكون أعظمهم موافقة له واقتداء به أفضل الخلق.

ولا يقال: هذه الفطرة يغيرها ما يوجد في المنتسبين إلى السنة والحديث من تفريط وعدوان لأنه يقال: إن ذلك في غيرهم أكثر والواجب مقابلة الجملة بالجملة في المحمود والمذموم هذه هي المقابلة العادلة.

وإنما غير الفطرة قلة المعرفة بالحديث والسنة واتباع ذلك مع ما يوجد في المخالفين لها من نوع تحقيق لبعض العلم وإحسان لبعض العمل. فيكون ذلك شبهة في قبول غيره وترجيح صاحبه. ولا غرض لنا في ذكر الأشخاص. وقد ذكر أبو محمد ابن قتيبة في أول كتاب "تأويل مختلِف الحديث" وغيره من العلماء في هذا الباب ما لا يحصى من الأمور المبينة لما ذكرناه.

وإنما المقصود ذكر نفس الطريقة العلمية والعملية التي تعرف بحقائق الأمور الخبرية النظرية وتوصل إلى حقائق الأمور الإرادية العملية. فمتى كان غير الرسول قادرًا على علم بذلك أو بيان له أو محبة لإفادة ذلك؟ فالرسول أعلم بذلك وأحرص على الهدى وأقدر على بيانه منه. وكذلك أصحابه من بعده وأتباعهم." (الانتصار لأهل الأثر ٢٠١- ٢٠٢)

"ونحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته، بل نعني بهم كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهرًا وباطنًا، واتباعه ظاهرًا وباطنًا وكذلك أهل القرآن. وأدنى خصلة في هؤلاء محبة القرآن والحديث والبحث عنهما وعن معانيهما والعمل بما علموه من موجَبهما ...".

"... فأما ما أوتيه علماء الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدى فأمر يجل عن الوصف، لكن عند عوامهم من اليقين والمعرفة والعلم النافع ما لم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة المتكلمين، وهذا ظاهر مشهود لكل أحد ...".

- هل تعني طريقة السلف أن نعيش كما كانوا يعيشون، ونمارس عباداتنا بالطريقة التي كانوا يمارسونها بها؟ أي أن نحج على الأقدام أو الجمال؟

+ طبعًا هذا غير صحيح، ولا أحد يقول به، لكنه مما يشنع به خصوم المنهج الأثري. أن نسير على طريقة السلف يعني أن نسير على منهجهم في تلقي النصوص وتعظيمها وتفسيرها والرجوع لها عند التنازع، والكف عما كفّوا عنه. وأن نتحرى طريقتهم في عقائدنا وعباداتنا، فما لم يكن من العبادات والعقائد وقت الصحابة دينًا فلن يكون دينًا أبدًا.

"... فعلى كل مؤمن ألا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، ولا يتقدم بين يديهِ، بل ينظر ما قال، فيكون قوله تبعًا لقوله، وعلمه تبعًا لأمره، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين؛ فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله، ولا يؤسس دينًا غير ما جاء به الرسول، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله اللّه والرسول، فمنه يتعلم وبه يتكلم، وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستدل، فهذا أصل أهل السنة. وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول، بل على ما رأوه أو ذاقوه، ثم إن وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضًا أو حرفوها تأويلًا.

فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة، وأهل النفاق والبدعة، وإن كان هؤلاء لهم من الإيمان نصيب وافر من اتباع السنة، لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدي اللّه ورسوله، وخالفوا اللّه ورسوله، ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول، ولو علموا لما قالوه لم يكونوا منافقين، بل ناقصي الإيمان مبتدعين، وخطؤهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به".

"وكثير من الناس يزن الأقوال بالرجال، فإذا اعتقد في الرجل أنه معَظَّم قَبِل أقوالَه وإن كانت باطلةً مخالفةً للكتاب والسنة، بل لا يصغي حينئذ إلى مَنْ يردّ ذلك القول بالكتاب والسنة. بل يجعل صاحبه كأنه معصوم. وإذا ما اعتقد في الرجل أنه غير معَظَّم ردَّ أقوالَه وإن كانت حقًّا، فيجعل قائل القول سببًا للقبول والرد من غير وزن بالكتاب والسنة ...

وكلّ من اتخذ شيخًا أو عالمًا متبوعًا في كلّ ما يقوله ويفعله، يوالي على موافقته ويعادي على مخالفته غير رسول الله ﷺ؛ فهو مبتدع ضالّ خارج عن الكتاب والسنة، سواء كان من أهل العلم والدين؛ كالمشايخ والعلماء أو كان من أهل الحرب والديوان؛ كالملوك والوزراء...

وهذا هو الأصل الفارق بين أهل السنة والجماعة، وبين أهل البدعة والفرقة. فإنّ أهل السنة والجماعة يجعلون رسول الله ﷺ هو الإمام المطلق، الذي يتبعونه في كلِّ شيء ويوالون من والاه ويعادون من عاداه...

وأما أهل البدعة فينصبون لهم إمامًا يتبعونه، أو طريقًا يسلكونه، يوالون عليه ويعادون عليه، وإن كان فيه ما يخالف السنة، حتى يوالوا مَن وافقهم مع بُعْدِهِ عن السنة، ويعادوا من خالفهم مع قُرْبه من السنة".

- اعذرني، طال الكلام في هذا، فهل لك أن تعطيني قاعدة في هذا؟

+ "جُمَّاع الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وطريق السعادة والنجاة، وطريق الشقاوة والهلاك: أن يجعل ما بعث اللّه به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه، أو تكذيبه، فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم".

- وكيف نتعامل مع أقوال العلماء إذا خالفت النصوص؟

+ "الواجب أن يجعل ما قاله اللّه ورسوله هو الأصل، ويتدبر معناه ويعقل، ويعرف برهانه ودليله إما العقلي، وإما الخبري السمعي، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا، وتجعل أقوال الناس التي قد توافقه و[قد] تخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ: يحتمل كذا وكذا، ويحتمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قُبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد.

وهذا مثل لفظ [المركب] و [الجسم] و [المتحيز] و [الجوهر] و[الجهة] و [العَرَض] ونحو ذلك، ولفظ [الحيز] ونحو ذلك، فإن هذه الألفاظ، لا توجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح، بل ولا في اللغة أيضًا، بل هم يختصون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الألفاظ، فيفسر تلك المعاني

بعبارات أخرى، ويبطل ما دل عليه القرآن بالأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل، وعرف وجه الكلام على أدلتهم، فإنها ملفقة من مقدمات مشتركة، يأخذون اللفظ المشترك في إحدى المقدمتين بمعنى، وفي المقدمة الأخرى بمعنى آخر، فهو في صورة اللفظ دليل، وفي المعنى ليس بدليل..." (الفرقان بين الحق والباطل ٩٥ تحقيق الأرناؤوط)

- لكن يا شيخ، يُشكل عليّ موافقة بعض كبار العلماء لأهل الكلام أو سيرهم على طريقته؟ فنرى أهل الكلام يستدلون على صواب مذهبهم أن علماء كبارًا ومنهم محدثون وحنابلة أيضًا يوافقونهم على طريقتهم.

+ بشكل عام، أقوال العلماء ومواقفهم ليست حجة على الشريعة، فهم بشر يخطئون ويصيبون. وقد يصدق النقل عنهم وقد لا يصدق، وقد يُفهم قولهم خطًا. فالحجة في النص الشرعي أو في إجماع العلماء. وقد يكون موقف بعض العلماء فتنة وامتحانًا، ليُعلم هل يسلم الإنسان للنص أو يتعصب لمتبوعه. وبقاء كتب البدعة من الامتحان للأمة، فإن الله يبتلي العباد بأمور متشابهة، ليتبين المؤمن الصادق ممن في قلبه مرض أو شك.

- جيد، وهذه قاعدة منهجية في المنهج السلفي. وأعرف أنك ألفتَ كتاب (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) لبيان سبب مخالفة بعض الفقهاء للحديث الصحيح، وموقف المسلم من ذلك. لكن هل يمكن بيان أسباب متابعة بعض العلماء لعلماء أهل الكلام؟

+ يمكن أن نقسم العلماء المشهود لهم بالخير الذين وافقوا أهل الكلام إلى أقسام أربعة (الدرء ٧/ ٣٢): ١) من ليس له خبرة بالعقليات

بل يقلد فيها، وله خبرة بالآثار، لكنه حسّن الظن بتلك العقليات ووافق أهلها فصار إما يؤول الآثار أو يفوض، مثل ابن الجوزي وابن حبان والبيهقي والقاضي عياض وأبي ذر الهروي. ٢) من يسلك في العقليات مسلك الاجتهاد لكنه يغلط فيها كغيره فيشارك الجهمية في بعض أصولهم الفاسدة، وليس له خبرة بكلام السلف والأئمة في هذا الباب، وإن كان يعرف متون الصحيحين وغيرهما، مثل ابن حزم وأبي الوليد الباجي وأبي بكر ابن العربي. ٣) قوم سمعوا الأحاديث والآثار وعظموا مذهب السلف، لكنهم شاركوا المتكلمين والجهمية في بعض أصولهم، ولم يكن لهم خبرة بالقرآن والأحاديث والآثار ما لأئمة السنة لا رواية ولا دراية، وقد ظنوا صحة بعض الأصول العقلية للنفاة الجهمية ورأوا ما بينهما من التعارض. وهذه حال أبي بكر بن فورك وأبي يعلى وابن عقيل، فأحيانًا يؤولون وأحيانًا يفوضون. ٤) من لهم خبرة بالعقليات المأخوذة عن الجهمية وقد شاركهم في بعض أصولها ورأوا ما في أقوالهم من مخالفة الأمور المشهورة عند أهل السنة مثل القرآن ورؤية الله، ولم يكن لهم الخبرة المفصلة بالقرآن ومعانيه والحديث وأقوال الصحابة فذهب مذهبًا مركبًا من هذا وهذا، وكلتا الطائفتين تنسبه للتناقض. وهذه هي طريقة الأشعري وأئمة أتباعه كالباقلاني والإسفراييني).

- ألاحظ اندماجًا كبيرًا بين أقوال أهل الكلام وعقائدهم والمذاهب الأربعة، بحيث صار من المسلم أن الشافعي (والمالكي) أشعري، والحنفي ماتريدي،

+ هذا عند المتأخرين، والعجيب أن كثيرًا من أصحاب المذاهب المتأخرين يصرحون بأنهم في الفروع (أي الفقه) على مذهب الإمام

الشافعي أو مالك أو أبي حنيفة، ويجلونهم لذلك، ولا يرضون أحدًا ينتقد مذهبهم. لكنهم في الأصول، أي العقيدة ينتسبون إلى الأشعري أو الماتريدي! لكن غالب المتقدمين من أهل المذاهب المشهورة سلفيون متبعون لأئمة مذاهبهم الذين كانوا لا يرضون بغير اتباع السلف. فـ "اعتقاد الشافعي رضي الله عنه واعتقاد السلف الأئمة كمالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه هو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم كالفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة وأمثالهم نزاع في أصول الدين، وكذلك أبو حنيفة رحمه الله، فإن الاعتقاد الثابت عنه في التوحيد والقدر ونحو ذلك موافق لاعتقاد هؤلاء، واعتقاد هؤلاء هو ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان وهو ما نطق به الكتاب والسنة". فالمالكية في المغرب كانوا على طريقة السلف وكان يعرف عنهم التشدد في الإنكار على أهل البدع ومخالفة مذهب مالك ليس في الفقه بل وفي العقيدة أيضًا.

- نعم، وأنت ذكرت النقول عن العلماء من كل مذهب في الفتوى الحموية، لكن ما سبب دخول هذه الأقوال الكلامية في مذاهب الأئمة المتبوعين؟ وأعني بذلك المذهب بمفهومه العام.

+ من الصعب الجزم بسبب ذلك، لكن قد يكون من الأسباب أن بعض علماء المذهب ينسب إلى إمامه قولاً يظنه قوله، أو يظن أنه يوافق أصوله، أو يظن أنه لما كان هو الحق - بحسب اعتقاده - فلا بد أن يكون هو قول إمامه. كما أن بعضهم يعتمد على كتب أو رسائل موضوعة على إمام المذهب، خاصة أن كثيرًا من أهل الكلام ليسوا متخصصين في علوم

الرواية. كذلك قد يكون من الأسباب أن يكون الإمام قال قولاً يحتمل تفسيرين فيفسرونه بالأقرب إلى علم الكلام - لأنه عندهم هو التفسير الموافق للعقل - ولو كان التفسير الآخر هو الصواب. ومنهم من يحرف تفسير كلام إمامه ليوافق ما يعتقده أهل الكلام، لاعتقاده أنه الحق، فيجب ألا يخالفَ كلامُ إمامه الحقَّ.

ومن أسباب انتشار مذاهب أهل الكلام، ونسبتها للأئمة، تصدر علماء الكلام، وقلة علماء الحديث، أو انصراف الناس عنهم. فإن "... كثيرًا من المتكلمين أو أكثرهم لا خبرة لهم بما دل عليه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان، بل ينصر مقالات يظنها دين المسلمين بل إجماع المسلمين ولا يكون قد قالها أحد من السلف؛ بل الثابت عن السلف مخالف لها".

"ومن المعلوم أن المعظمين للفلسفة والكلام المعتقدين لمضمونهما أبعد عن معرفة الحديث واتِّباعه من هؤلاء [أي أتباع الحديث]. هذا أمر محسوس، بل إذا كشفت أحوالهم وجدتهم من أجهل الناس بأقواله ﷺ وأحواله وبواطن أموره وظاهرها، حتى تجد كثيرًا من العامة أعلم بذلك منهم. ولا يميزون بين ما قاله وما لم يقله، بل قد لا يفرقون بين حديث متواتر عنه وحديث مكذوب موضوع عليه، وإنما يعتمدون في موافقته على ما يوافق قولهم سواء كان موضوعًا أو غير موضوع. فيعدلون إلى أحاديث يعلم خاصة الرسول [ﷺ] بالضرورة اليقينية أنها مكذوبة عليه عن أحاديث يعلم خاصته بالضرورة اليقينية أنها قوله. ولا يعلمون مراده، بل غالب هؤلاء لا يعلمون معاني القرآن فضلاً عن الحديث، بل كثير منهم لا يحفظون القرآن أصلاً. فمن لا يحفظ القرآن ولا يعرف معانيه

ولا يعرف الحديث ومعانيه، من أين يكون عارفًا بالحقائق المأخوذة عن الرسول ﷺ؟!...".

- أيعقل هذا؟!

+ نعم، "وقد حدثني ثقة أنه تولى مدرسة مشهد الحسين بمصر بعض أئمة المتكلمين رجل يسمى شمس الدين الأصبهاني فأعطوه جزءًا... فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ألْمَص، حتى قيل له: ألف لام ميم صاد...".

- سبحان الله! كيف يكونون علماء كبارًا ولا يعرفون أقوال السلف؟!

+ هذا هو الواقع! وانظر إلى مؤلفاتهم تجدهم أبعد الناس عن الاستدلال بالآثار، وتجدهم عند الاستدلال لا يفرقون بين الصحيح والضعيف غالبًا، وانظر في سيَرهم تجد أنه ليس لهم اهتمام بطلب علم الحديث النبوي، فضلاً عن الآثار عن السلف، الصحابة والتابعين.

- غريب!

+ ومن طالع كتبهم وجد ذلك بينًا. "فأبو الحُسين [البصري] وأمثاله من المعتزلة وكذلك الغزالي والرازي وأمثالهما من فروع الجهمية هم أقل الناس علمًا بالأحاديث النبوية وأقوال السلف في أصول الدين وفي معاني القرآن وفيما بلغوه من الحديث، حتى إن كثيرًا منهم لا يظن أن السلف تكلموا في هذه الأبواب." بل إن أبا المعالي الجويني وأبا حامد الغزالي والرازي وأمثالهم من أئمة أهل الكلام "لم يكن لهم من المعرفة بالحديث ما يُعَدُّون به من عوام أهل الصناعة [الحديثية] فضلاً عن خواصها، ولم يكن الواحد من هؤلاء يعرف البخاري ومسلمًا وأحاديثهما إلا بالسماع،

كما يذكر ذلك العامة، ولا يميزون بين الحديث الصحيح المتواتر عند أهل الحديث وبين الحديث المفترى المكذوب، وكتبهم أصدق شاهد بذلك، ففيها عجائب".

- نعم أنا لاحظت هذا، خاصة في كتاب إحياء علوم الدين، وهذا من الفوارق الأساسية الواضحة بين طريقة تأليف علماء الأثر وعلماء الكلام.

+ "وإذا تدبر العاقل وجد الطوائف كلما كانت الطائفة إلى الله ورسوله أقرب كانت بالقرآن والحديث أعظم عناية، وإذا كانت عن الله وعن رسوله أبعد كانت عنهما أنأى، حتى تجد في أئمة علماء هؤلاء من لا يميز بين القرآن وغيره، بل ربما ذكرت له آية، فقال: لا نسلم بصحة الحديث..." (الانتصار للأثر ١٤٢).

- إذن، لماذا يوافقهم كثير من أهل الفقه والحديث؟!

+ "وافقهم في بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه والحديث والتصوف؛ لوجوه:

أحدها كثرة الحق الذي يقولونه وظهور الأثارة النبوية عندهم

الثاني لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصابئة وبعضها مما ابتدع في الإسلام واستيلاء ما في ذلك من الشبهات عليهم وظنهم أنه لم يمكن التمسك بالأثارة النبوية من أهل العقل والعلم إلا على هذا الوجه.

الثالث، ضعف الأثارة النبوية الدافعة لهذه الشبهات والموضحة لسبيل الهدى عندهم.

الرابع العجز والتفريط الواقع في المنتسبين إلى السنة والحديث: تارة يروون ما لا يعلمون صحته وتارة يكونون كالأميين الذين لا يعلمون

الكتاب إلا أماني ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور" (الفتاوى ١٢/ ٣٣).

- إذن أنت ترى أن المنهج الصحيح لفهم الدين وقراءة النصوص هو اتباع السلف في عقيدتهم وعلمهم وعملهم وطريقة تعاملهم مع النصوص.

+ نعم، لأنها الطريقة التي اختارها الله لفهم دينه، وأقرها الرسول ﷺ وأثمرت للصحابة الإيمان وكمل لهم بها الدين، وما عداها من مذاهب أهل الكلام وأهل التصوف، إذا خالفتها، فإنها تنتهي إلى الضلال والحيرة والشك والاختلاف.

كان من الممكن لابن تيمية أن يعيش حياته ككثير من غيره من العلماء، يشرح كلام العلماء قبله ويقرر المذاهب كما هي وينحاز لأحدها، ويعيش مقلدًا، راضيًا بترديد ما أضافه علماء الكلام للعلوم الشرعية من فلسفة وتكلف. وكان سيعيش في سلام مع الآخرين، وربما نال حظوة كبيرة بسبب قدراته العلمية واعتراف العلماء بفضله، لكنه فضّل طريقًا غير ذلك، الطريق الأقل سلوكًا، وهو الانحياز للحق والدليل، ونصرة مذهب السلف، في وقت كاد فيه مذهب السلف يُنسى، والقيام بمقتضى ما أخذه الله على أهل العلم من البيان. فلعل الله اختاره ليكون مجددًا للدين في عصره، لكن الأكيد أن تجديده لم يقف فقط عند عصره.

الكتب والتأليف

دخلت مكتبتي وأدَرتُ النظر في رفوف الكتب فيها، لم أجد كتابًا يشدني. على غير العادة، كانت كل الكتب التي أمامي باهتة بالنسبة لي، ولأول مرة أحس أن المكتبة ميتة .. لا روح فيها، يلفها السكون، وتنغمس في صمت لم أعهده منها. كنت إذا دخلتها تومض الكتب أمامي كنجوم في ظلمة، كل منها يحاول أن يلفت انتباهي، ويكاد يدعوني لقراءته، وكأنه يحيا بقراءة القارئ له. تخيلت لو أن المعاني والأفكار التي تحويها هذه الكتب تمثلت وخرجت من كتبها، فكيف سيكون حال المكتبة. عشرات الآلاف من الصفحات، وأضعافها من الأفكار والمعاني، تمتد لمدة زمنية تغطي آلاف السنين. ثم تخيلت لو خرجت هذه الأفكار والعلوم وتمثلت على صور وأشكال واقتربت لي بحسب تلبسي بها وحبي لها لكانت أفكار ابن تيمية وآراؤه تلفني. فأول الكتب التي تلفت نظري هي كتبه. ركزت على كتاب مجموع الفتاوى، إذ هو خزانة علم ابن تيمية. والفتاوى ليس، كما قد يتبادر إلى الذهن، مجموعًا من الفتاوى، بل هو جامع لكتب صغيرة ورسائل وفتاوى، لشيخ الإسلام رحمه الله. جمعها الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله في نهاية القرن الرابع عشر الهجري. ورتبها على الأبواب الفقهية وبدأها بأبواب العقيدة. تناولت المجلد الأول، وفتحته، فوجدت ابن تيمية يكتب. تهيبت أن أقاطعه لشدة انهماكه في الكتابة وتركيزه فيها. لذلك انتظرت إلى أن توقف قليلاً للتفكير، فبادرته بالسؤال:

- كم عدد الكتب التي ألفتها؟

وضع القلم، وكأنه وجدها فرصة ليستريح قليلاً، ثم أجاب:

+ من الصعب حصرها. فغالب ما تعدونه كتبًا إنما كان عبارة عن رسائل وأجوبة كتبتها بناء على سؤال سائل أو مستفتٍ. وبعضها كتبته ردًا على كتب أخرى، كان الهدف منها نقض القضايا الأساسية في تلك الكتب.

- هل تعطيني مثالاً لكل نوع؟

+ نعم، العقيدة الواسطية رسالة صغيرة في أصول العقيدة، "كان سبب كتابتها أنه قدم عليّ من أرض واسط بعض قضاة نواحيها شيخ يقال له رضي الدين الواسطي من أصحاب الشافعي قدم علينا حاجًّا وكان من أهل الخير والدين، وشكا ما الناس فيه بتلك البلاد وفى دولة التتر من غلبة الجهل والظلم ودروس الدين والعلم، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته. فاستعفيت من ذلك وقلت قد كتب الناس عقائد متعددة فخذ بعض عقائد أئمة السنة فألحّ في السؤال وقال ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت فكتبت له هذه العقيدة وأنا قاعد بعد العصر وقد انتشرت بها نسخ كثيرة في مصر والعراق وغيرهما".

- وقد شُرحت في عصرنا شروحًا كثيرة، اطلعت على عدد منها.

+ في الجملة التزمت ألا أذكر في هذه الرسالة لفظًا إلا وله أصل عند السلف، وأمهلت خصومي ثلاث سنين أن يأتوا بكلمة واحدة عن أحد من السلف في القرون المفضلة تخالف ما في هذه العقيدة.

- ماذا تعني بهذا؟

+ في باب العقائد يجب أن تستند كل عقيدة على نص، ويجب أن يبنى كل تفسير على أثر عمن سلف من الأئمة من الصحابة والتابعين. ولذلك تقيدت في كتابة هذه العقيدة بأن لا أذكر مبدأ عقديًا أو لفظًا متعلقًا بالعقيدة إلا وقد سبقني إليه أحد السلف.

- قلت إنك أمهلتهم ليأتوا بكلمة واحدة تخالف ما فيها، فهل جاؤوا بشيء؟

+ لا، لم يأتوا بشيء!

- هذا مثال على الرسائل القصيرة التقريرية، هل من مثال على كتب الردود والمجادلات؟

+ نعم، أكثر كتبي من هذا النوع، ولذلك تطول الكتب وتتشعب، ويكثر فيها الاستطراد. فمن ذلك كتاب: منهاج السنة رددت به على أحد علماء الرافضة، ابن المطهر الحلي في كتابه منهاج الكرامة، وكتاب درء تعارض العقل والنقل ناقشت فيه الرازي، وكتاب بيان تلبيس الجهمية رددت فيه على أساس التقديس للرازي. بل إنني أحيانًا أكتب الكتاب أو الرسالة فيأتي من يعترض عليها، فأقوم بكتابة توضيح ورد على ما اعترض به.

- مثل الفتوى الحموية؟ سمعت أنك كتبت ردًا على اعتراضات عليها، لكن للأسف لم يصلنا منها إلا جزء يسير!

+ نعم، فقد كتبت الفتوى الحموية، فأخذها خصومي وكتبوا عليها أوراقًا في ردها، ثم سعوا السعي الشديد إلى القضاة والفقهاء واحدًا واحدًا وأوغروا خواطرهم وحرفوا الكلام وكذبوا الكذب الفاحش وصوروا أني أقول بالتجسيم! وأنني أوعزت ذلك إلى أصحابي وأني أفسد العوام بذلك وسعوا في ذلك سعيًا شديدًا[1].

---

(١) بتصرف من العقود الدرية ١٩٨.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

+ طلبني قاضي الحنفية أن آتيه، فلم أستجب له وقلت له (إن العقائد ليس أمرها إليك... وإن إنكار المنكرات ليس مما يختص به القاضي) فلعله وجد في نفسه عليّ، وفرح أهل الضلال بهذا الجواب منّي، فأوغروا صدر القاضي عليّ فأمر قاضي الحنفية أن ينادى في البلد (ببطلان عقيدة ابن تيمية)، فنودي في بعض البلد، فلما علم والي البلد بذلك منعهم وغضب عليهم وأمر بمتابعة من يسعى في هذه الفتنة، وقد اختفى أكثرهم.

- لعلك خشيت أن يتعصب ضدك - كما يقول أبو زهرة -، فقد كان متعنتًا؟

لم يعلق ابن تيمية على تساؤلي، فلم أفهم منه هل وافق على استنتاجي أم لا. فسألته؟

- ثم ماذا حدث؟

+ لا شيء، جلست على عادتي يوم الجمعة في الدرس، وكان الدرس في تفسير (وإنك لعلى خلق عظيم) فتكلمت عن الحِلم وما ينبغي استعماله فيه.

- مصادفة جميلة! وهل انتهى الأمر عند هذا؟

+ جلست بعد ذلك مع قاضي الشافعية وقرأت معه العقيدة الحموية وأوضحت له ما أشكل من بعض المواضع، فلم يحصل إنكار، وانتهى المجلس وقاضي الشافعية يقول: (كل من تكلم في الشيخ - يعنيني - يعزر)[1].

---

(١) مستفاد من العقود الدرية لابن عبد الهادي.

كان ابن تيمية يتكلم عن كتبه باندفاع ورغبة في التوسع في الشرح، فخطر في بالي سؤال مُلحّ، لم أستطع أن أدفعه، فقاطعته:

- اسمح لي أن أقول لك إني أحيانًا أعاني عند قراءة كتبك، فما هي طريقتك في التأليف؟

+ "أكثر تصانيفي إنما أمليها أو أكتبها من حفظي وكثير منها صنفته في الحبس وليس عندي ما أحتاج إليه من الكتب، فأنا بحمد الله كنت إذا طالعت كتابًا يكاد ينتقش في ذهني لفظه ومعناه. والذي يجعل كتبي تطول وتتشعب وتتداخل فيها القضايا، أمران: أولاً أني أتابع من أرد عليه فيما يثيره من قضايا. والثاني، أني أتوسع في الرد والتوضيح بحيث أخرج من القضية الأساسية إلى مناقشة قضايا متفرعة من القضية الأساسية. وربما ذلك بسبب طبيعتي في التفكير، وبسبب أني لم أتفرغ للتأليف وتحرير الردود.

- لماذا أكثر تأليفك في العقيدة وأصول الدين، ولم تنشغل ككثير من الفقهاء بالفقه والتأليف فيه؟

+ "الفروع أمرها قريب، فإذا قلّد المسلم فيها أحدَ العلماء المقلَّدين جاز له العمل بقوله، ما لم يتيقن خطأه. وأمّا الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء، كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية، والقدرية، والنُّصيرية، والجهمية، والحلولية، والمعطلة، والمجسِّمة، والمشبِّهة، والراوندية، والكُلّابية، والسالمية، وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمّة الضلال، وبان لي أنّ كثيرًا منهم إنما قَصَد إبطال الشريعة المقدّسة المحمدية، الظاهرة على كلّ دين،

العلية، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلّ أن سمعت أو رأيت معرضًا عن الكتاب والسنة، مقبلاً على مقولاتهم، إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه أو اعتقاده."

- هذا صحيح، وقد لمست هذا في بعض ما قرأته من كتبهم.

+ "فلما رأيت الأمر على ذلك، بانَ لي أنه يجب على كلّ من يقدر على دفع شُبَهِهم وأباطيلهم وقطع حُجّتهم وأضاليلهم، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، وزيف دلائلهم، ذبًّا عن الملة الحنيفية، والسنة الصحيحة الجليّة.

- لكنهم يزعمون نصر الإسلام؟

+ "ولا والله ما رأيتُ فيهم أحدًا ممّن صنّف في هذا الشأن، وادعى علوّ المقام، إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام." وقد لا يكون بعضهم قصد هذا القصد السيئ، لكنه ساعد بسلوك هذا الطريق على صرف الناس عن السنة وطريق السلف، ونسبة الباطل لدين الإسلام. "فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنّي صرفت جُلّ همّي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة العقلية والنقلية".

- لكن يا شيخ، هم أذكياء وذوو قدرات عقلية عالية، فكيف يقع من أحدهم ذلك؟

+ "سبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين، وعمّا جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سمّوها بزعمهم حكميات وعقليّات، وإنما هي جهالات وضلالات، وكونه التزمها معرضًا عن غيرها أصلاً ورأسًا، فغلبت عليه حتى غطّت

على عقله السليم، فتخبّط حتى خَبَط فيها خَبْط عشواء، ولم يفرّق بين الحقّ والباطل، وإلا فالله أعظم لطفًا بعباده من ألا يجعل لهم عقلاً يقبل الحقّ ويثبته، ويبطل الباطل وينفيه، لكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال".

- يحيرني يا شيخ، أن العلماء ألّفوا في كل باب، وشرحوا كل المسائل، فكيف تلتبس على الناس؟ بل حتى على العلماء؟

+ صحيح، "قد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعابًا، فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالاً." وكثير من المصنفين في المقالات لا يذكرون الرأي الصواب وهو رأي السلف لجهلهم به. "ولكن ينبغي أن يعرف أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول [ﷺ] وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (طه: ١٢٣)".

رأيت الشيخ منطلقًا في الكلام عن كتبه، فوجدتها فرصة لسؤاله عن الطريقة المناسبة لقراءة كتبه، فقلت:

- طالما أننا نتحدث عن الكتب، اسمح لي بسؤال عن كتبك. يقبل كثير على قراءة كتبك، فهل يمكن أن تقترح عليّ منهجًا في قراءتها.

+ العلم الشرعي هو العلم المتلقى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولذلك فعلى طالب العلم إذا أراد تلقي العلم أن يبدأ بما تقرر في الكتاب والسنة، وبالكتب التي تقرر ذلك. لكن بالنسبة لكتبي فأقترح أولاً أن يقرأ

طالب العلم (العقيدة الواسطية)، ولو قرأ بعد ذلك شرحًا لها لكان حسنًا لأنها مختصرة تحتاج لفهمها لشيء من التوسع والبسط.

- عفوًا، لماذا اسمها الواسطية؟

+ سماها الناس الواسطية لأني كتبتها جوابًا لسؤال رجل من بلدة واسط، وذكرت ذلك في المقدمة.

- ولماذا تقترح البدء بالواسطية؟

+ لأني عندما كتبتها كان في ذهني تقرير مذهب السلف في القضايا الاعتقادية الإيمانية الأساسية، مع الأخذ في الاعتبار القضايا التي خالف فيها أهل الأهواء، فحرصت على إيراد أدلة كل قضية خالفوا فيها وحرصت على التقيد بالألفاظ التي وردت عن السلف.

- والسلف تقصد بهم - فيما أذكر - علماء القرون الثلاثة الأولى.

+ نعم، لكن لا تنس أن القرن لم يكن يعني اصطلاحكم مائة سنة، إنما كان يعني الجيل، ويقدرونه بالأربعين سنة أو نحوها.

- جيد، ثم ماذا بعد الواسطية؟

+ لعل من المفيد قراءة رسالة العبودية، ففيها تقرير لأصل الدين الذي خلق الله له الجن والإنس. والذي يلفه غموض كبير بسبب جدليات أهل الكلام وخرافات أهل التصوف. فحاولت في هذه الرسالة أن أحرر هذه المسألة: مسألة العبودية، وما هو الفهم الصحيح لها.

- كأنك تريد بالبدء بهذين الكتابين تأصيل العقيدة وتقريرها من مصدريها الكتاب والسنة، ثم تأصيل مفهوم العبادة التي هي الغاية من الخلق

+ نعم، هذا صحيح، ودائمًا إذا صحت الأصول يسهل تصحيح الفروع، بل تصحيح الأصول يمنع الانحراف في الفروع.

- ثم ماذا توصي بأن يقرأ؟

+ ثم يقرأ (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، وهو رسالة صغيرة. وفيها حاولت أن أبين أسباب اختلاف العلماء، وبينت فيه أن كثيرًا من الاختلاف بينهم كان لأسباب علمية وجيهة، فلم يكن منهم من يتقصد مخالفة الدليل. كما بينت الموقف الصحيح من هذا الاختلاف.

- يعني أنه كتاب في المنهج؟

+ نعم، وهو ضروري لكل طالب علم.

- ثم ماذا تقترح بعده؟

+ ثم الحموية، وفيه ذكرت المنهج في فهم الدين الحق، بشكل عام، وفي نصوص الصفات بشكل خاص. ثم (قاعدة في التوسل والوسيلة)، وفيه بينت قضايا مهمة في توحيد الإلهية والعبادة، مما شاع فيه الخلل لدى كثير من العلماء المتأخرين، حتى عصركم هذا. ثم التدمرية، وفيها قواعد منهجية مهمة في التعامل مع النص. ثم كتاب الإيمان. ثم اقتضاء الصراط المستقيم.

تعجبت من ترتيب الشيخ، فقد كنت أظنه سيذكر كتبه الكبار، التي ظهرت فيها قوته العلمية، أو كتب الرد على المنطقيين الذي ظهرت فيه عبقريته. فسألته:

- لم تشر إلى شيء من كتبك المطولة، كدرء تعارض العقل والنقل، ومنهاج السنة، وبيان تلبيس الجهمية؟

+ من يريد أن يأخذ العلم فعليه البدء بكتب التأصيل والتقرير. وهي الكتب التي تبدأ بتقرير أصول المسائل، وتوضحها. وأنا لم أكتب كتبي الكبيرة إلا بيانًا لخطأ من أخطأ ودفعًا للخطأ عن الشريعة، وليس ليقال عني إنه كتب وكتب، أو لإشغال الناس بالكلام والجدل.

- وهل تنصح بقراءتها؟

+ كتبي المطولة تحتاج في قراءتها إلى فهم القضايا الأساسية فيها قبل البدء فيها، لأني أتوسع فيها في الرد، وأستطرد كثيرًا. لكن بعد أن يقرأ طالب العلم ما سبق فإنه يكون قادرًا على قراءة ما شاء من كتبي. بل قد يكون - في الجملة - في غنى عن قراءتها. لأن كتبي في الردود غالبها تطبيق لتلك القواعد والأصول في الرد على المخالفين ونقض كلامهم.

- لكن فيها أشياء من القواعد والتنبيهات ما لا يوجد في كتبك المختصرة.

+ نعم هذا صحيح، فالجدل يولد نوعًا من التعمق في تفصيل القضايا والتوسع فيها، كما أنه يدعو إلى الاستطراد، وأحيانًا يكون في هذا فوائد تأتي عرضًا لا قصدًا. لكن يحتاجها من أراد فهم القضايا الكلامية والعقدية التي ناقشتها فيها. ففي درء تعارض العقل والنقل ناقشت - كما ذكرت سابقًا - أهل الكلام وخاصة الرازي في القانون الكلي للتأويل، وبيان تلبيس الجهمية خصصته تقريبًا للرد على الرازي أيضًا في كتابه أساس التقديس، الذي عرض فيه عقيدة الأشاعرة، واعترض فيه على عقيدة السلف. أما منهاج السنة فقد رددت به على رافضي أراد الطعن أيضًا في عقيدة أهل السنة.

- نعم، وقد أثنى عليه كثير ممن جاء بعدك، حتى بعض خصومك. وقد بسطت فيه الكلام على أصول الشيعة وفندت شبههم التي يثيرونها على أهل السنة.

+ يجب أن تعلم يا بني أن"... الرد على أهل الباطل لا يكون مستوعبًا إلا إذا اتبعت السنة من كل الوجوه، وإلا فمن وافق السنة من وجه وخالفها من وجه طمع فيه خصومه من الوجه الذي خالف فيه السنة، واحتجوا عليه بما وافقهم عليه من تلك المقدمات المخالفة للسنة. وقد تدبرت عامة ما يحتج به أهل الباطل على من هو أقرب إلى الحق منهم، فوجدته إنما تكون حجة الباطل قوية لما تركوه من الحق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه، فيكون ما تركوه من ذلك الحق من أعظم حجج المبطل عليهم..." (الدرء ٦/ ٢١٠)

أحسست أني الآن أقرب إلى فهم ابن تيمية، أو - إن صحت العبارة - امتلكت مفاتيح فهم ابن تيمية، وبدأت تتضح لي معالم بنائه الفكري ومنهجه العلمي، لكن بقي هناك قضايا تفصيلية تثار عن ابن تيمية، لا يمكن أن أضيع فرصة اللقاء بابن تيمية دون أن أناقشه فيها.

التوحيد

لعله لا يرد اسم ابن تيمية في ذهن أحد إلا ويرد موضوع التوحيد والشرك. فشيخ الإسلام قضى حياته في بيان التوحيد وتنقيته مما شابه والرجوع به إلى صفائه الذي كان عليه في القرون الأولى للإسلام. فقد بدأ حياته مهاجرًا من بلده - مع أسرته - بعد أن غزا التتار بلدته حران، وتوجه إلى الشام، بلد الطائفة المنصورة، كما يراها. ومات في السجن دفاعًا عن التوحيد.

لم أجد صعوبة في تحديد الكتاب الذي يناسب الحديث عن التوحيد، فكتب الشيخ في التوحيد كثيرة، لكني رأيت أن أتوجه إلى المجلد الأول في مجموع الفتاوى، فهو في توحيد الألوهية، وفيه رسائل وفتاوى كثيرة في هذا الباب. فتحت الكتاب فبدا لي خيال ابن تيمية، فسألته:

- من يقرأ كتبك، يرى واضحًا أنك صرفت جهدًا كبيرًا لموضوع التوحيد. لماذا؟

+ التوحيد هو أساس دين الإسلام، وهو القضية الكبرى التي تدور حولها كل القضايا الدينية. وهو الأمر الذي خلق الله له الجن والإنس. ثم إني رأيت المتكلمين أغفلوا جانبًا مهمًّا منه، وغلطوا في جوانب أخرى.

"فإن الإنسان خلق محتاجًا إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ونفسه مريدة دائمًا، ولا بد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به، وليس ذلك إلا لله وحده، فلا تطمئن القلوب إلا به ولا تسكن النفوس

إلا إليه، و (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فكل مألوه سواه يحصل به الفساد، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لا شريك له..."

فأهل الكلام لتأثرهم بمنهج الفلاسفة ولتركيزهم على الردود عليهم وعلى أتباعهم، ركزوا على الجانب العلمي النظري معرفة الله وصفاته. ولم يوفقوا للحق في هذا الجانب، وأغفلوا تمامًا جانب (توحيد العبادة) الذي هو (توحيد الألوهية).

- وماذا ألفت فيه؟

+ ألفت فيه الكثير من الرسائل والردود، منها رسالة العبودية، وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة. بل كل كتبي تدور على تقرير التوحيد..

- نعم وستتكلم عن التوسل لأن لدي أسئلة كثيرة عنه. وماذا أيضًا؟

+ وكتاب الرد على البكري، والرد على الأخنائي، والجواب الباهر لزوار المقابر، وغيرها من الرسائل والفتاوى

- نعم والمجلد الأول من مجموع الفتاوى يحوي عددًا منها.

+نعم، حوى عددًا من الرسائل والفتاوى. كما أن الرسالة التدمرية هي في بيان التوحيد بشقيه العلمي والعملي. بل في الحقيقة كل مؤلفاتي تدور على هذا الأصل.

- هل لك أن تبين لي رؤيتك لأقسام التوحيد؟

+ أهل الكلام انطلقوا في بيان التوحيد من نقطتين: الأولى إثبات وجود الله، والثانية إثبات مخالفة صفاته لصفات المخلوقين. وسلكوا في ذلك مسالك عقلية، ظنوا أنها توصلهم لمطلوبهم، وتلزم خصومهم من الفلاسفة ومن أصحاب الديانات الأخرى التي ضلت في تصور الله جل وعلا.

- وماذا في هذا؟

+ لا إشكال في ذلك من حيث الأصل، لكن ينتج من ذلك إشكالان: الأول: تأثرهم بالطرح الفلسفي، وهو ما جرّهم إلى التركيز على أن غاية التوحيد هو إثبات وجود الله، والثاني أنهم بعد أن وضعوا قواعد عقلية في هذا - دليل الحدوث تحديدًا - عادوا ليطبقوها على النصوص الشرعية. فكل ما توهموا أنه يخالف تلك القواعد أو يشكل عليها أخذوا في رده أو وضع تفسير له سموه (تأويلاً). ونتج أيضًا مشكلة ثالثة وهي أن أهل الكلام لتركيزهم على الجوانب النظرية الفلسفية غفلوا عن الجانب العملي وهو توحيد الألوهية. الذي يكوّن الجزء الأكبر من دعوة الرسل. وهو ثمرة المعرفة.

وقد استقريت النصوص الشرعية وكلام السلف فوجدت التوحيد يمكن أن ينقسم إلى قسمين: التوحيد العلمي، وهو ما يتعلق بوجود الله وصفاته أو إفراد الله بأفعاله، والتوحيد العملي وهو توحيد العبادة وتوحيده بأفعال العباد.

- من أين جاء التقسيم الثلاثي؟

تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام هو مزيد تفصيل. فالتوحيد النظري (ويسمى توحيد الإثبات، أيضًا) يمكن أن ينقسم إلى قسمين: قسم يتعلق بربوبية الله.

- ماذا تعني بربوبية الله؟

+ أعني أفعاله المتعلقة بالخلق

- والقسم الثاني؟

+ قسم يتعلق بصفات الله. فالله له أفعال مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة، فهذه أشياء لا يقوم بها إلا هو ويجب أن نعتقد أنه منفرد بها، وهذا توحيد الربوبية. وله صفات منفرد بها مثل العلو والعظمة والكبرياء والعلم والرحمة والحكمة، فهذه صفات يجب أن يوحد الله بها، على الوجه الذي يليق به، فعلو الله وعلمه ورحمته وعظمته وكبرياؤه وغير ذلك من صفاته، يجب أن تثبت له - كما وردت في النصوص - بوجه لا يماثل صفات المخلوقين، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير). وبهذا تكون الأقسام - على سبيل التفصيل ثلاثة: ١) ربوبية، و (٢) أسماء وصفات، و (٣) ألوهية.

- وهل أنت من ابتدع هذا التقسيم؟

+ كذا يقول من لم يعرف كلام علماء السلف. فهذا التقسيم أولاً تقسيم نظري، تم بناء على الاستقراء، لبيان معاني النصوص، فليس فيه إنشاء لشيء جديد في الدين حتى يقال إنه بدعة، كما أني لم أكن أول من ذكره بل سبقني في ذلك علماء أجلاء، لكني أنا نشرته وبسطت القول فيه ونقضت شبه الخصوم عليه. فهو ليس اختراعًا من عندي. هو تقرير لمفاهيم شرعية موجودة، وسبق أن أشار لها علماء قبلي. كل ما عملته أني بسطت القول فيها ووضحتها، لأبين مقدار الانحراف الذي أوقعنا فيه أهل الكلام في الجانب العلمي النظري وأهل التصوف في الجانب العملي.

- لكن هناك من يقول إنك أول من ابتدعه.

+ قلت لك هذا لا يسمى بدعة، لأنه تقسيم علمي للتوضيح والتفسير، ولا علاقة له بإنشاء عبادة أو معتقد جديد. أما القول بأني أول من ذكره فهذا بسبب عدم اطلاع كثير من خصومي على كلام علماء السلف. بل

بعضهم لم يطلع حتى على كثير من الأحاديث الصحيحة. وهذه مشكلته، فمن لم يطلع على كلام علماء السلف المتقدمين، واكتفى بالاطلاع على كتب المتأخرين، الغزالي ومن بعده، فمن الطبيعي أن يستنكر كلامي وما أنقله وما أستنتجه من كلام العلماء المتقدمين. فطريقة المتأخرين أفسدها علم الكلام، وزاد ذلك سوءًا تجاهلهم لكلام المتقدمين.

- هل تعني أن من علماء السلف من قبلك من قال بهذا التقسيم؟

+ نعم. فهذا عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري المتوفى سنة ٣٨٧ هـ يقول في كتابه (الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة): "... وذلك أن أصل الإيمان بالله... ثلاثة أشياء: أحدها أن يعتقد ربانيته، ليكون بذلك مباينًا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعًا. والثاني أن يعتقد وحدانيته ليكون مباينًا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره. والثالث أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفًا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه..."(١).

- نعم، أنا أيضًا رأيت بعض المتأخرين ممن لا يمكن أن يحسب من أتباعك يقر هذا التقسيم، قال علي ملا قاري في شرح الفقه الأكبر ص ٩ (... أقول فابتداء كلامه سبحانه وتعالى في الفاتحة بالحمد لله رب العالمين يشير إلى تقرير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية، المقتضي من الخلق تحقيق العبودية...) .

---

(١) انظر القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد. لعبد الرزاق البدر.

+ على أي حال، هذا التقسيم تقسيم علمي نظري وصفي، نتج عن استقراء وتصنيف. فليس فيه إنشاء حكم جديد.

- هل يمكن أن توضح الحكم الوصفي بمثال؟

+ نعم. العلماء عندما قسموا في كتب الفقه (أعمال الصلاة)، إنما قاموا بحصر ما دلت الأدلة على وجوبه في أعمال الصلاة، واستحبابه. فهم لم يأتوا بشيء جديد، ولم ينشئوا حكمًا جديدًا بناء على هذا التقسيم. كل ما في الأمر أنهم حصروا هذه الأشياء التي قال العلماء إنها واجبات أو مستحبات. فلا أحد يمكن أن يقول إن الفقهاء جاؤوا ببدعة في هذا التقسيم، أو إنهم أنشؤوا شيئًا جديدًا. كل ما في الأمر أنهم صنفوا ما هو موجود أصلاً.

- دعني أعدْ بك إلى السؤال الأساس، لماذا ثار بعض العلماء عليك قديمًا وحديثًا.

+ ذكرت لك أني تيقنت أن المنهج الكلامي والطريقة الصوفية قادانا إلى انحراف كبير في الفهم والتصور وفي السلوك.

"... فالكلاميون غالب نظرهم وقولهم في الثبوت والانتفاء والوجود والعدم والقضايا التصديقية، فغايتهم مجرد التصديق والعلم والخبر. والصوفيون غالب طلبهم وعملهم في المحبة والبغض والإرادة والكراهية والحركات العملية، فغايتهم المحبة والانقياد والعمل والإرادة. وأما أهل العلم والإيمان فجامعون بين التصديق العلمي والعمل الحُبيّ. ثم إن تصديقهم عن علم وعملهم وحبهم عن علم، فسلموا من آفتي منحرفة المتكلمة والمتصوفة، وحصّلوا ما فات كل واحدة منهما من النقص. فإن كلاً من المنحرفين له مفسدتان: إحداهما القول بلا علم -

إن كان متكلمًا - والعمل بلا علم - إن كان متصوفًا - وهو ما وقع من البدع الكلامية والعملية المخالفة للكتاب والسنة. والثانية فوّت المتكلم العمل وفوت المتصوف القول والكلام. وأهل السنة الباطنة والظاهرة كان كلامهم وعملهم باطنًا وظاهرًا بعلم وكان كل واحد من قولهم وعملهم مقرونًا بالآخر، وهؤلاء هم المسلمون حقًّا...".

فـ "... المتكلمون إنما انتصبوا لإقامة المقاييس العقلية على توحيد الربوبية..."، وهذا قلّ في الناس من يخالف فيه. الخلاف الكبير كان وما زال توحيد العبادة، ولذلك ركزت عليه الشرائع.

وبحكم نشأتي الأثرية الحديثية المتأثرة بالمذهب الحنبلي اكتشفت هذا الأمر وعلمت أنه لا يسعني السكوت عليه مع قلة أو عدم من يبينه للناس. فماذا تتوقع مني غير ذلك؟ ولك أن تتصور لو أنه لم يتم تصحيح الوضع أو على الأقل الدعوة لتصحيح الوضع من القرن السابع الهجري، فكيف سيكون الوضع اليوم في القرن الخامس عشر الهجري وما بعده؟! فقمت بمشروع لتصحيح منهج الفهم والتلقي ولبيان عقيدة السلف. والمشكلة أن الدعوة للتصحيح جاءت في وقت انتشرت فيه البدع، وانتشر فيه التقليد والتعصب للمذاهب.

- مثل ماذا؟

+ لعل أهم قضية ثارت هي شد الرحل لزيارة القبور، وكذلك قضية التوسل بالصالحين ودعائهم.

- فعلاً هي من القضايا التي يتجدد الكلام فيها، وهي من القضايا التي تفرّق المسلمين، ويشتد الخلاف فيها. وأعرف أن لك فيها مؤلفات مستقلة.

+ كنت أعرف أن الخصومة ستكون قوية، لأن خصومي ليسوا فريقًا واحدًا، كما أن خصومتي معهم كانت عقدية فكرية ومذهبية ودنيوية أيضًا، فكما تعرف كانت في وقتي هناك وظائف مذهبية مثل الفتوى والإشراف على المدارس والأوقاف ونحو ذلك، فلكل مذهب مشايخه ومفتوه وقوّام مدارسه وأوقافه يعملون بمرتبات معلومة. وهؤلاء لا يريدون من يتعرض لهم بشيء قد يؤثر على هذه الوظائف.

كنت كل مرة أترك فيها ابن تيمية لا يتركني! فذهني يظل مشغولاً به وبآرائه وبأقوال خصومه. مررت على عدد من كتب خصومه، وتصفحتها فوجدتها تتركز على قضايا معدودة وتكاد تكرر الأقوال ذاتها، بأخطائها، وتتجاهل الردود المتعاقبة عليها. فقررت أن أجمع هذه القضايا وأسأل ابن تيمية عنها، ليلخص لي رأيه فيها.

التأويل

كلام ابن تيمية عن تقديم العقل على النقل، وتصوره الذي يخالف فيه أهل الكلام، لفت انتباهي إلى قضية التأويل، وكيف أنها كانت آلية ابتدعوها للخروج من هذا المأزق الذي أوقعوا أنفسهم فيه. لكنهم أرادوا الخروج من مأزق، فوقعوا فيما هو أشد منه. فرأيت أنها فرصة أن أطارح ابن تيمية الحديث حوله.

فكرت أين يمكن أن أجد ابن تيمية عندما أريد أن أطرح عليه هذا الموضوع، فقد تكلم عن التأويل في رسائل ومواضع متعددة من كتبه، بل لا يكاد يخلو كتاب له من الإشارة إليه. فرأيت أن أذهب لرسالته (الإكليل في المتشابه والتأويل). فتحت الكتاب، فتبدت لي صورة ابن تيمية، فسارعت بسؤاله:

- لك كلام كثير عن "التأويل"، بل ربما لا يُذكر التأويل عند علماء الشريعة والمفكرين الإسلاميين إلا ويأتي ذكر ابن تيمية.

+ نعم التأويل من القضايا التي انحرف فيها كثير من علماء الكلام. وقد استمر فيها الخلاف، حتى بين الفلاسفة إلى عصركم الحاضر، وهي قضية منهجية - بمصطلحكم المعاصر.

- وماذا يعني هذا؟

+ هذا يعني أنها مرتبطة بأصول النظر والاستدلال، ولذا فالخلاف فيها ينبني عليه خلافات فرعية أكبر. فضبطها وردها إلى أصلها الشرعي

يحسم كثيرًا من القضايا الخلافية، ويعين على بيان الصواب فيها. وكما قلت لك مرارًا، أنا وإن كنت أرد على بعض العلماء وأبين أخطاءهم، لكني في الوقت ذاته أبين قضايا منهجية لا يمكن معرفة الحق إلا بتحريرها والرجوع فيها إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة.

- أحتاج أن توضح لي هذه النقطة، لأني أشعر من كلامك أنها مهمة، وأرى من اطلاعي على كتبك وكتب خصومك وأنصارك أيضًا أنها أخذت حيزًا كبيرًا من الجدل وسببت خصومات كثيرة.

+ نعم هذا صحيح. وإذا انحلت لك مشكلة التأويل، ووفقت فيها للقول الصواب - وهو قول السلف الصالح - انحلّ لك كثير من الإشكالات.

- هل لك، غفر الله لك، أن تبين لي أصل هذه القضية؟

+ الدين وصلنا من خلال نصوص، وهي القرآن وأقوال الرسول ﷺ ويضاف إلى ذلك ما فعله الرسول ﷺ أو أقرّ فعله. هذا في الجملة لا إشكال فيه بين علماء الأمة.

- أعتذر عن المقاطعة! أشعر أني أحتاج لفهم كل كلمة تقولها. ماذا تعني ب (في الجملة)؟

+ أعني أنهم متفقون على هذا من حيث المبدأ وبشكل عام، فقد يخالف بعضهم مثلاً في ما هو واجب أو مستحب، أو في فعل الرسول ﷺ، ما هو على سبيل التشريع أو كان بحكم العادة أو الطبيعة البشرية. فهذه تفصيلات لا تهمنا الآن. فهم متفقون على أن الدين هو ما بلّغه الرسول ﷺ.

- جيد! نعود إلى أصل القضية.

+ نعم. نحن أمام نصوص، قرآن وسنة. كيف أستخرج الحكم الشرعي أو مراد الشارع من هذه النصوص؟ هذا هو المنهج. لا بد من "منهجية" - أو منهج - باصطلاحكم المعاصر، لأعرف المعنى الذي قصده الشارع. فالكلام يحتمل معانِيَ متعددة، فهل الأمر متروك للاجتهادات الشخصية؟ اليونانيون واجهتهم هذه المشكلة على مستوى أعم، فحاول أرسطو ضبط ذلك بوضع (المنطق)، كما سبق وذكرناه، حيث قصد منه أمرين أساسين: تحديد الأشياء بشكل دقيق، والاستدلال على القضايا بشكل صحيح. وهو ما يسمونه، في المنطق، التصور والتصديق.

- وهل وضع العلماء منهجية لذلك؟

+ العلماء تكلموا عن تلك المنهجية في أصول الفقه، وأول من تكلم عن هذا بشكل مستقل هو الإمام الشافعي رحمه الله. ثم تتابع العلماء على التأليف فيه.

- وما علاقة هذا بالتأويل؟

+ أنا في موضوع التأويل ركزت على جزئية في هذا المجال.

- ما هي؟

+ تتلخص في السؤال التالي: هل يؤخذ النص الشرعي على ظاهره أم نبحث عن المعنى الذي فيه ويوافق ما تقرر عندنا سلفًا؟ وإذا قلنا نأخذ بالظاهر فما المقصود بالظاهر؟

- ما سبب تركيزك على (الظاهر)؟

+ والسبب في تركيزي على ذلك أن علماء الكلام أرادوا استخدام (التأويل) "للالتفاف" على نصوص الصفات (كما فعل المتفلسفة في

نصوص اليوم الآخر). فهم يريدون التخلص من القول ب (ظاهرها) لأنها بزعمهم تخالف ما تقرر عقلاً عندهم. فالقول بظاهرها، على طريقة السلف، يهدم أصولهم التي أقاموا عليها عقيدتهم في التوحيد. فالأصل في كلام المتكلم أن يؤخذ على ظاهره، فلا يحق لنا أن نحدد معنى غير الظاهر المتبادر للذهن من كلام المتكلم، إذا أردنا أنا نفهم معناه الذي يخاطبنا به. ولو فعلنا ذلك لكان فيه تعدٍّ على ذلك المعنى من جهة، ومن جهة أخرى سنختلف في المعنى المراد، كما حصل مع أهل الكلام في تأويلاتهم.

ثم إني تأملت طريقة السلف، وهم الصحابة والتابعون والأئمة من بعدهم، فلم أرَهم يتأولون النصوص، بل يفهمون منها ظاهرها، ولا يخطر ببالهم أنها تخالف العقول، ولم يرد عن أي أحد منهم اعتراض على أي نص بعقله. فهم إذا استشكلوا النص استشكلوه في مقابل نص آخر. لكن لم يكونوا يردون النصوص لأنها تخالف العقل. والله سبحانه يقول: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (النساء ١١٥) فللمؤمنين سبيل نحن مأمورون باتباعه.

وعلى أي حال فكثير من علماء الكلام ينتهي به الأمر إلى الرجوع إلى طريقة السلف والكف عن التأويل، لأن هذا هو الذي تدل عليه الأدلة ويناسب الفطرة.

الظاهر

- لكن دعني أَعُدْ بك إلى سؤال طرحته أنت: ماذا تقصد بالظاهر؟

+ هذا سؤال مهم، وكثير من خصومي يضلل بكلام هو يعرف أني لم أقصده.

- إذن لعلك توضحه.

+ الكلام هو مجموعة من الكلمات توضع في ترتيب معين بينها علاقات معينة وتكون في سياق معين يعرفه المتكلم ويعرفه المتلقي. والمعنى لا يؤخذ من الكلمات مفردة، بل المعنى يتحدد من ثلاثة أمور: الأول الكلمات المفردة، والثاني العلاقة بين الكلمات، والثالث السياق العام للكلام. ولا يمكن فهم الكلام بغير ذلك. فظاهر الكلام ليس هو المعنى المفرد للكلمات فقط - كما يحاول أن يوهم بذلك بعض خصومي -، بل الظاهر هو المعنى المتحصل من الثلاثة الأشياء: (١) الكلمة ومعناها في لغة العرب، (٢) علاقة هذه الكلمة بالكلمات الأخرى في الجملة، (٣) السياق الذي وردت فيه الكلمة.

- حتى يتضح الأمر، ماذا تعني بالسياق؟

+ يعجبني فيك أنك تحاول أن تفهم كل مصطلح أسوقه، وهذا مهم للاستيعاب. السياق يقصد به الوضع النفسي والاجتماعي والحسي الذي حدث فيه الكلام. مثل حال المستمع/ المتلقي، وحال المتكلم، وسبب صدور الكلام/ القول، ومعنى هذا الكلام في المجتمع الذي صدر

فيه، ونحو ذلك. ولذلك كان العلماء بالسنة وبكلام الرسول والصحابة والتابعين وأحوالهم هم أقدر الناس على فهم معنى النصوص، لأنهم أدرى بسياق الكلام، ممن يهجم على النص وهو لا يدري شيئًا عن سياقه.

- هل يمكن أن تعطي مثالاً؟

+ لو كنت أنا وأنت نعيش قريبًا من غابة فيها سباع، فقلت لك (مررت بالغابة فبرز إلي أسد يزأر). فلا يشك عاقل أن ظاهر الكلام أني رأيت الأسد الحيوان المعروف. ولو كنت أقصد غير ذلك فيُعد هذا مني سوء تعبير، بل خطأ. لكن لو قلت (بدأت المعركة وتقارب الجيشان فبرز من بين الصفوف أسد شاهرًا سيفه) فلا يشك أحد أني أقصد ب (الأسد) هنا المقاتل الشجاع، وهذا ظاهر الكلام. هم يقولون هو هنا (مجاز) وفي المثال الأول (حقيقة)، هذا لا إشكال فيه الآن. فالمقصود أن ظاهر الكلام في المثال الأول أعطى معنى الأسد الحيوان لكلمة (أسد) ومعنى الشجاع للكلمة نفسها في المثال الثاني. والسبب في ذلك سياق الكلام.

" لفظ الظاهر فينبغي أن يعرف أن الظاهر قد يراد به نفس اللفظ لظهوره للسمع أو لظهور معناه للقلب، وقد يراد به المعنى الذي يظهر من اللفظ للقلب، وقد يراد به الأمران. ويعلم أن الظهور والبطون من الأمور النسبية، فقد يظهر لشخص أو طائفة ما لا يظهر لغيرهم، تارة لأسباب تقترن بالكلام أو المتكلم، وتارة لأسباب تكون عند المستمع، وتارة لأسباب أخر. ويُعلم أن ظهور المعنى من اللفظ لا يجب أن يكون لمجرد الوضع اللغوي المفرد، بل قد يكون من جهة الحقيقة اللغوية أو العرفية أو الشرعية، وقد يكون من جهة المجاز الذي اقترن باللفظ من القرائن اللفظية والحالية ما جعله هو ظاهر اللفظ عند من يسميه مجازًا. وأما من

يمنع تسميته مجازًا إما في القرآن أو مطلقًا فلا يسمون ذلك مجازًا. ويُعلم أن وضع اللفظ حال الإفراد قد يخالف وضعه حال التركيب، بل غالب الألفاظ كذلك ..." (بيان تلبيس الجهمية ٥/ ٤٥٤)

وهذا له تطبيق في باب صفات الله، وهو سبب خلافي مع أهل الكلام. فـ"... لفظ الظاهر في عرف المتأخرين قد صار فيه اشتراك، فإن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو في خصائص المخلوقين حتى يشبه الله بخلقه فهذا ضلال، بل يجب القطع بأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله [...] أما إن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو الظاهر في عرف سلف الأمة بحيث لا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يلحد في أسماء الله تعالى، ولا يفسر القرآن والحديث بما يخالف تفسير سلف الأمة وأهل السنة بل يُجري ذلك على ما اقتضته النصوص وتطابقَ عليه دلائل الكتاب والسنة وأجمع عليه سلف الأمة، فهذا مصيب في ذلك، وهو الحق ...".

وأما أهل التأويل فهم الذين يرون أن الظاهر منها الذي يفهمه أي عربي بما يليق بالله، ليس مرادًا، وأنه يجب علينا البحث عن معنى لها غير ظاهرها، لأنها بمفهومهم تقتضي التشبيه. ويرون أن هذه طريقة الخلف (في مقابل السلف) وأنها أعلم من طريقة السلف.

و "... ليس لأحد أن يحمل كلام أحد من الناس إلا على ما عرف أنه أراده لا على ما يحتمله ذلك اللفظ في كلام كل أحد، فإن كثيرًا من الناس يتأول النصوص المخالفة لقوله، يسلك مسلك من يجعل "التأويل" كأنه ذِكر ما يحتمله اللفظ. وقصده به دفع ذلك المحتج عليه بذلك النص، وهذا خطأ...".

- جيد وما علاقة ذلك بفهم النص الشرعي؟

+ عندما نقرأ أو نسمع كلمة من صفات الله، يجب أن نفهمها في سياقها. فهي ليست مما يتعلق بالمخلوقين حتى نفسرها بما نفهمه من صفات المخلوقين، بل متعلقة بالله، فيجب أن تفهم في ضوء هذا التعلق. وهذا ظاهرها. ومن فسر الظاهر فيما يتعلق بالله بما يعرفه فيما يتعلق بالمخلوقين فهو - من هذه الحيثية -كمن فسر الأسد في مثال المحارب القوي الشجاع بالأسد الحيوان دون النظر إلى ما يحدده السياق، بحجة أن لفظ (الأسد) واحد في الموضعين. وقد بينت هذا فيما يتعلق بصفات الله في (العقيدة التدمرية) القاعدة الثالثة.

- لنربط هذا بموضوع التأويل، حتى لا ننسى موضوعنا الأساس.

+ جيد، لجأ أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة إلى تأويل آيات الصفات مثل رحمة الله ونزوله ومجيئه ويده، وهي كلها ثابتة في نصوص قرآنية ونبوية، لجؤوا لتأويلها أي تفسيرها بغير ظاهرها لأنهم يرون أن الظاهر فيه تشبيه لصفات الله بصفات المخلوقين. فهم يقولون - مثلاً - الرحمة إرادة الإنعام، ومجيئه مجيء ملائكته أو أمره، ويده نعمته .. وقد يختلفون في هذه التفسيرات بحسب ما يتصورونه من معنى الآية. فهم يرون أن الظاهر هو ما يشابه صفات المخلوقين. وأنا أقول كلا، بل الظاهر هو صفات تليق بالله، وحيث إن وجود الله لا يماثل وجود المخلوقين وذاته لا تماثل ذواتهم، فباللزوم صفاته لا تماثل صفاتهم. ومن اعتقد هذا وتخلص من الإلزامات والشبه الباطلة التي يطرحها علماء الكلام، اطمأنت نفسه وتذوق كلام الله وشعر بشيء من عظمة صفاته.

المجاز

- هل من هذا خلافك مع أهل عصرك في المجاز في اللغة؟

+ نعم!

- هذا من القضايا التي طال فيها الكلام معك، رغم أن القضية قضية لغوية، لا عقدية.

+ هي كذلك في الأصل، لكن سبب الخلاف فيها وسبب دخولي فيها أن لها تطبيقات عقدية في باب الأسماء والصفات خاصة، ويمكن أن تتوسع لتشمل الغيبيات كلها.

- هي من المرات القلائل التي أراك فيها تتكلم كلام الفيلسوف...

قلت هذا الكلام .. ثم تذكرت أني أكلم ابن تيمية، فتوقفت، كالنادم على هذه العبارة. لم يعلق الشيخ على كلامي، بل أغمض عينيه وأشاح عني بوجهه. ولم أدرِ هل إعراضه موافقة أم عدم موافقة. ولكي لا أسمع رده سارعت بالسؤال:

- هل لك أن توجز لي الكلام فيها؟

+ نعم،.... وأحسنت أنك أخرت الكلام عليها إلى هنا، لأن الكلام في هذا مبني على قواعد وأصول تقدمت، فهذا يسهل الأمر علي.

- حسنًا، أولاً ما معنى المجاز؟

+ في اللغة مصدر ميمي من الجواز وهو العبور. وفي الاصطلاح: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له. فإذا قيل (أسد) والقائل يقصد

الحيوان المفترس، قالوا هذا حقيقة، وإذا قيل بدأت الحرب فظهر أسد يبارز الأبطال، قالوا هذا مجاز، ويقصد به الرجل الشجاع. ف (الحرب) و (يبارز الأبطال) دليل على انتقال المعنى من الحقيقة إلى المجاز. ولا بد أن تكون بين المعنيين علاقة، كالمشابهة أو السببية، لكي يتم الانتقال من الحقيقة إلى المجاز.

- وما وجه اعتراضك؟

+ أنا لا أنكر أن هذا الأسلوب موجود في العربية، فهذا لا ينكر وجوده عاقل. وجه اعتراضي أن هذا التقسيم (حقيقة في موضع ومجاز في موضع آخر) لا دليل عليه. فلم تجتمع العرب لتقرر أن هذا اللفظ حقيقة في هذا، وإذا استخدم في ذاك فهو مجاز. وإنما هذا أسلوب عربي، بل قد يكون في كل اللغات، أن معنى اللفظ يتحدد بسياقه، أي بالكلام الذي يسبقه أو يأتي بعده مما يوضح مقصود المتكلم. فاللفظ المجرد لا معنى دقيقًا له، إنما يتكون المعنى بالقيود والإضافات والتخصيص. " ويعلم أن ظهور المعنى من اللفظ لا يجب أن يكون لمجرد الوضع اللغوي المفرد، بل قد يكون من جهة الحقيقة اللغوية أو العرفية أو الشرعية، وقد يكون من جهة المجاز الذي[1] اقترن باللفظ من القرائن اللفظية ما جعله هو ظاهر اللفظ عند من يسميه مجازًا، وأما من يمنع تسميته مجازًا إما في القرآن أو مطلقًا فلا يسمون ذلك مجازًا".

فهم يقولون إن الألفاظ وضعت أولاً لاستخدام "أصلي"، - مثلاً (الأسد) للحيوان المعروف، ثم نُقلت لتستخدم بمعنى مجازي. فهم يحتاجون لإثبات

---

(١) كذا، ولعل الصواب (إذا) أو (للذي).

اتفاق من يستعمل اللغة على معنى أولي. ومن يمنع المجاز يقول إن العرب تستخدم اللفظ وتعطيه معناه بحسب السياق، دون تحديد معنى حقيقي ومعنى مجازي. وكونكم حددتم المعنى الأصلي (الحقيقي) بحكم كثرة الاستعمال وتبادره للذهن، لا يعني أن هذا مؤثر في معاني اللغة.

- بعضهم يقول إن الخلاف لفظي؟

+ لا يمتنع أن يكون الخلاف لفظيًّا، لولا أني أصرّ على أن صفات الله والأمور الشرعية الغيبية لا يمكن أن تفسر بهذا الأسلوب التحكمي غير المنضبط.

- كيف هذا؟

+ أي لا يمكن أن يترك المجال للغويين لكي يتأولوا النصوص الشرعية بناء على ما يقررونه هم من الحقيقة والمجاز. بل يفسر على ما تعرفه العرب من لغتها متقيدًا بالسياق الذي ورد فيه.

- وما الضابط في ذلك؟

+ الضابط الذي لا يمكن أن يختل هو فهم الصحابة وأئمة التابعين. فالمعنى الصحيح - سواء أطلقنا عليه حقيقة أو مجازًا - هو ما فهمه السلف من النص، فهم عرب أقحاح، وهم أدرى بالسياق الذي ورد فيه النص.

- إذن هذا رأيك؟

+ هذا ليس رأيي، هذا إجماع السلف. فابن عبد البر (توفي ٤٦٣هـ) رحمه الله الذي يقول "أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة وأما أهل

البدع والجهمية والمعتزلة كلها [وتبعهم الأشاعرة] والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئًا منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقر بها مشبه... والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة والحمد لله".

- أنت دائمًا تقول إن هذا هو طريقة السلف، كيف لك أن تحكم بهذا؟

+ نعم، وهذا أمر مؤكد، لا يشك فيه من عرف حالهم، واطلع على ما نقل من أقوالهم. المشكلة أن كثيرًا ممن يخالف في ذلك ليس على اطلاع على أحوالهم وأقوالهم. فعلماء الكلام أقل الناس اهتمامًا بأقوال الصحابة والتابعين، بل حتى بكلام رسول الله ﷺ، كما بينت ذلك لك فيما سبق.

وأحب أن تعرف أني ولله الحمد لم أقل قط في مسالة إلا بقول قد سبقني إليه العلماء، وإن كان يخطر لي ويتوجه بقلبي القول، لكني لا أقوله ولا أنصره إلا إذا عرفت أن بعض العلماء قد قاله، كما قال الإمام أحمد: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام(١).

- دعنا نعدْ إلى موضوع نقل إجماع السلف. كيف تقرر إجماع السلف على هذا الرأي؟

+ تلقى الصحابة وبعدهم التابعون كلام الله وكلام رسوله وفيهما ما يصعب حصره من نصوص الصفات تكرر وتتلى وتقال في مواطن كثيرة، ويسمعها الصغير والكبير والجاهل والعالم والأعرابي وغيره، ثم تمت الفتوح ودخل كثير من الأعاجم في دين الله وهم يسمعون هذا الكلام ويتلونه، ولم يقل الرسول ﷺ ولا الصحابة يومًا واحدًا لا في نقل صحيح

---

(١) الأخنائية ٣٦٢.

ولا ضعيف (إن ظواهر هذا الكلام غير مرادة)، أو (إن الكلام ليس على ظاهره). بل قبلوها كما يفهمها العربي في سياقها وفهموا منها تعظيم الرب جل وعلا، وتمييزه عن غيره من المخلوقات بهذه الصفات. أفلم يكن لديهم من الحرص على بيان دين الله ما يدفعهم لبيان المراد منها، لو لم يكن المراد هو "ظاهرها"؟!

"... ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين - وإن دقت - أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين الذي معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول إليه غاية المطالب.

بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مُسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام ثم إذا كان قد وقع ذلك منه، فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه.

ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة - القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق وكلاهما ممتنع...".

- هل انفردت بنقل الإجماع؟

+ وهذا الإجماع لست أنا من نقله، نقله قبلي غالب علماء التابعين وتابعيهم. وهو واضح لكل من خَبَرَ أقوال الصحابة وتابعيهم. لكن كما

ذكرت لك مشكلة كثير من أهل الكلام عدم اهتمامهم بأحوال السلف من الصحابة والتابعين. فترى بعضهم يعرف من أقوال الفلاسفة أضعافَ أضعاف ما يعرف من كلام الرسول ﷺ وصحابته.

- نعم وقد رأيت كلامًا يطابق كلامك لعلامة اليمن محمد بن إبراهيم الوزير (المتوفى سنة ٨٤٠) في كتابه (إيثار الحق على الخلق)

+ وماذا قال؟

- قال ص ٣٣٩: "الدليل على أنه لا يجوز القول بأن ظواهر هذه الأسماء كفر وضلال، وأن الصحابة والسلف لم يفهموا ذلك، أو فهموا ولم يقوموا بما يجب عليهم من نصح المسلمين وبيان التأويل الحق لهم أمران: الأول قاطع ضروري، وهو أن العادة توجب في كل ما كان كذلك أن يظهر التحذير منه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أصحابه، ويتواتر أعظم مما حذروا من الدجال الأعور الكذاب..."

+ هذا صحيح، فلا يجوز على الرسول والصحابة أن ينبه على مثل الدجال بل ما هو أقل منه ولا ينبه على سوء فهم يسبق إلى فهم أكثر الناس. ثم ماذا قال؟

- يواصل ابن الوزير القول: "ولا يجوز عليهم [أي الصحابة] أن يتركوا صبيانهم ونساءهم وعامتهم يسمعون ذلك منسوبًا إلى الله وإلى كتابه ورسوله وظاهره الكفر وهم سكوت عليه، مع بلادة الأكثرين. ولو تركوا بيان ذلك ثقة بنظر العقول الدقيق لتركوا التحذير من فتنة الدجال، فإن بطلان ربوبيته أجلى في العقول من ذلك. ألا ترى أن المتكلمين لما اعتقدوا قبح هذه الظواهر تواتر عنهم التحذير منها والتأويل لها، وصنفوا

في ذلك وأيقظوا الغافلين وعلموا الجاهلين وكفروا المخالفين وأشاعوا ذلك بين المسلمين، بل بين العالمين. فكان أحق منهم بذلك سيد المرسلين وقدماء السابقين وأنصار الدين".

+ رحمه الله! نعم متى كان أهل الكلام أحرص على البيان من رسول رب العالمين ﷺ؟! ومتى كانوا أحرص على تعليم الناس منه ومن صحابته؟ استدلال عقلي متين، وفيه الحجة على كل منصف.

- لكن بعض الناس يقول إن التأويل مستخدم لدى علماء السلف.

+ هذه هي المشكلة التي حذرتك منها مرارًا. استخدام المجمل من الكلام، وعدم تحرير المصطلحات.

- صحيح، لكن وضّح لي هذه فيما يتعلق بالتأويل.

+ التأويل يطلق ويراد به ثلاثة معان: الأول: التفسير وبيان المعنى. الثاني ما يؤول إليه حقيقة الشيء، ويمكن أن نقول تفسير الشيء واقعًا. فتأويل الرؤيا هو ما تكون عليه في الواقع، وتأويل أخبار اليوم الآخر هو وقوعها حقيقة. (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) (يوم يأتي تأويله ...) وهذان المعنيان معروفان في اللغة ومعروفان عند علماء السلف. ولا إشكال فيهما.

- إذن الإشكال في المعنى الثالث للتأويل؟

+ نعم! وهو المعنى الذي اصطلح عليه المتأخرون وخاصة أهل الكلام ومن تأثر بهم.

- وما هو هذا المعنى؟

+ المعنى الثالث للتأويل هو (صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح، لقرينة). فيأتون مثلاً لكلمة (استوى) في قوله تعالى:

(ثم استوى على العرش) فيقولون نؤولها. والقرينة عندهم أن الاستواء من صفات المخلوقين. أو أن الاستواء يعني حلول الحوادث بالله. أو لأي سبب عقلي يرونه. وعليه يبحثون عن "تفسير" لـ (استوى) يتوافق مع ما اعتقدوه في صفات الله. فيقولون استوى بمعنى (استولى). وهذا المعنى ل (التأويل) حادث، لا يعرفه السلف من الصحابة والتابعين. "فالتأويل الذي بمعنى صرف اللفظ عن مفهومه إلى غير مفهومه، فهذا لم يكن هو المراد بلفظ التأويل في كلام السلف، اللهم إلا أنه إذا علم أن المتكلم أراد المعنى الذي يقال إنه خلاف الظاهر جعلوه من التأويل الذي هو التفسير لكونه تفسيرًا للكلام وبيانًا لمراد المتكلم، أو جعلوه من النوع الآخر الذي هو الحقيقة الثابتة في نفس الأمر..."[1].

فالمؤول بهذه الطريقة وقع في عدد من المخالفات الخطيرة.

- كيف هذا؟

+ أولاً عندما قال إن المعنى هو المعنى المعروف للصفة بالنسبة للمخلوقين، فقد أثبت معنى للنص لا يليق بالله جل وعلا، وقطعًا هذا الفهم ليس هو الفهم الصحيح. فهو لم يلجأ إلى التأويل إلا لما اعتقد التشبيه. مع أن النصوص لا تدل على هذا ولم يفهمها صحابة رسول الله على ذلك، ولا من تبعهم على الفهم الفطري، أي فهمها بما يليق بالله سبحانه.

ثانيًا هو فسر (أي أوّل) كلام الله بمعنى من عند نفسه لم يرد عن الصحابة ولا التابعين، ولا تساعده فيه اللغة غالبًا. وإنما تكلف هذا

---

(١) انظر الصفدية ١/ ٢٨٩، ٢٩١.

التفسير فرارًا مما اعتقده تشبيهًا لازمًا. وهو لازم فقط في عقله. ولذلك قال ابن عساكر وهو من علماء الأشاعرة (إن الموحد ما دام سالكًا محجة التنزيه آمنًا في عقده من ركوب لجة التشبيه فهو غير محتاج إلى الخوض في التأويل لسلامة عقيدته من الشبه والأباطيل. فأما إن تكدر صفاء عقده بكدورة التكييف والتمثيل فلا بد من تصفية قلبه من الكدر بمصفاة التأويل...) (تبيين كذب المفتري ٢/ ٣٦٢، عن مدارس الأشعرية ٤٦ - ٤٧) والذي يهمني هنا أول كلامه، وهو أنهم لجؤوا إلى التأويل بسبب وقوعهم في التشبيه أولاً! والصواب في علاج ذلك هو التسليم للنصوص والكف عن البحث في حقائق المعاني، وليس تحريفها. لأن من حرفها باسم التأويل يكون كمن هرب من مكروه ليقع فيما هو أشد منه.

ثالثًا اختلافهم في "تأويل" بعض الصفات، مما يعني أن أحد هذه التأويلات على الأقل ليس صحيحًا قطعًا، وترددهم بين التفويض والتأويل وتجويزهم للأخذ بأحدهما، شكًّا منهم بالصواب. فليس عندهم يقين بالمعنى المراد.

التفويض

- وما هو التفويض؟

+ التفويض هو التوقف في تفسير معنى نصوص الصفات، بحيث يعتقد المفوض أنها لا تدل على شيء، حيث إنهم يعتقدون أنه لا صفة خلف هذه المعاني، أو أنها لا تدل على شيء مفهوم للبشر.

- وهل هذا مخرج صحيح؟

+ قطعًا لا!

ولماذا؟ فإن من يفوض يتوقف، ولا يقول شيئًا.

+ هذه هي المشكلة! من يفوض، ويتوقف، لا يفعل ذلك إلا بناء على اعتقاد معين في نصوص الصفات.

- كيف هذا؟

من لا يرى أن للصفات معنى فلا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

إما يرى أن هذه الصفات ليست حقيقية، وأن الأنبياء إنما خيلوا للناس وضربوا لهم أمثلة بما تعرفه عقولهم وهؤلاء هم الفلاسفة.

وإما يرى أن الرسول ﷺ والصحابة أصلاً لم يعرفوا تلك المعاني، وإنما كانوا يتلونها كما يتلون الحروف المقطعة، وليس لها معنى. وهذا قد لا يكون قال به صراحة أحد لكنه لازم لطائفة من المفوضة، خاصة من ينسبون ذلك للسلف.

والثالث، من يقول إن الرسول يعرف معانيها، لكنه لم يخبرنا بذلك. وفي هذا تجهيل للصحابة، وتصوير لهم بأنهم كانوا يقرؤون النصوص ولا يفهمون معناها. وهو أيضًا تفريغ لنصوص الصفات، على كثرتها في الكتاب والسنة، من معانيها.

والغريب أن أهل الكلام مع نسبتهم (التفويض) للسلف، إلا أنهم - مع هذا - لم يقتنعوا به، بل رأوا أن التأويل، الذي هو البحث عن معانٍ للصفات هو الطريق الأفضل.

- إذن أخطأوا بنسبة التفويض للسلف، وزادوا بأن جاهروا بمخالفتهم في البحث عن معانٍ يبتكرونها لتلك الصفات.

+ نعم.

- إذن التفويض باطل؟

+ ليس بهذا الإطلاق! حتى لا نقع في الإجمال الذي يجعل الأمور تلتبس. فالصواب أن يقال الصفات لها (معنى) كلي، يجعل الكلام مفيدًا وله معنى، ولها (كيف) يختص بمن تتعلق به، يناسبه. فنثبت المعنى، ونفوض "الكيفية" لأننا مخاطبون بالمعنى الأصلي للصفة، أما كيفيتها وتفاصيلها فيما يليق بالله فلم نكلف به ولا تحتمله عقولنا، لأن الله (ليس كمثله شيء). فالتفويض نوعان: تفويض المعنى، وتفويض الكيفية. فأهل السنة والجماعة يفوضون الكيفية، ولا يفوضون المعنى، بل يقرُّون به ويثبتونه فمن قال إن أهل السنة هم الذين يقولون بالتفويض - ويعني به تفويض المعنى - فقد أخطأ عليهم. وبهذا تستقيم كلمة الإمام مالك المشهورة عندما سئل عن الاستواء (الاستواء غير مجهول، والكيف غير

معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) فقوله غير مجهول صريح في أن المعنى معروف في لغة العرب يعرفه أي عربي، فإذا كان منسوبًا لله، فهو بما يليق بالله. والكيف لا تدركه عقولنا، وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نسأل عما وراءه.

- هذا صحيح، فالتفويض يحجب الإنسان عن تدبر عظمة الله والتفكر في معاني الصفات.

+ فإن القرآن مليء بنصوص الصفات، والمقصود منها معرفة الله وبيان عظمته من خلال صفاته وأفعاله. فتعطيلها بالتفويض للمعاني أو التأويل يخالف المقصود من إنزالها.

"فلا بد أن نؤمن بالكتاب كله، ونتبع ما أنزل إلينا من ربنا جميعه. ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وتلين قلوبنا لاتباع بعض السُّنَّة، وتنفر عن قبول بعضها بحسب العادات والأهواء، فإن هذا خروج عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين".

- شيء فعلاً يدعو للعجب، برغم كثرة النصوص وصراحتها في إثبات الصفات، وتتابع الصحابة والسلف على سماعها والتسليم بها ونقلها، إلا أن أهل الكلام يصرون مع هذا على أن مذهب السلف هو التفويض وعدم إثبات المعاني اللائقة بالله جل وعلا!

+ لك أن تعجب، وعلى أي حال فموقف أهل الكلام هذا لا يتوافق مع قول إمام الأشعرية أبي الحسن الأشعري الذي وافق السلف، في آخر حياته، في إثبات الصفات، فقد قال في مقالات الإسلاميين ١/ ٣٤٥ : "جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله، وملائكته وكتبه ورسله

وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا يردون من ذلك شيئًا ..."، إلى أن قال: "وأن الله سبحانه على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وأن له يدين بلا كيف، كما قال: (خلقت بيدي) وكما قال: (بل يداه مبسوطتان)، وأن له عينين بلا كيف، كما قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وأن له وجهًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]،... ويقولون إن الله يرى بالأبصار يوم القيامة، كما يرى القمر ليلة البدر..."، إلى أن قال: "... وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب...". فأنا لا أدعو الناس إلا إلى هذا!

تركت ابن تيمية، وأنا أفكر في النتيجة التي كنا سننتهي إليها فيما يتعلق بفهم النصوص لو أنه لم يوقف هذا التيار التأويلي الذي كان سيقضي على جزء كبير من المعاني العظيمة في الوحي (القرآن والسنة)، ويفتح الباب على مصراعيه لكل أنواع التأويل، بقضائه على معاقد منهج السلف في التلقي والاستدلال، فيجعل النص كلأً مباحًا لكل من أراد أن يفسره بهواه.

التجسيم

من حواري السابق مع الشيخ شعرت أني أكثر جرأة على طرح الأسئلة عليه، وذلك لشعوري بترحيبه بكل تساؤل، وكأنه كتاب مفتوح. ولذا قررت في هذه الجلسة أن أكون صريحًا معه، وأسأله بشكل مباشر عن تهمة تتكرر تقريبًا في كتب كل خصوم ابن تيمية قديمًا وحديثًا، تصريحًا أو تلميحًا. ولم أجد كبير عناء في أن أقرر الكتاب الذي سوف أقصده، وهو كتاب (بيان تلبيس الجهمية). وقفت أمامه بمجلداته الثمانية (مع مجلدي الدراسة والفهارس) ولونه الأخضر الفاتح الذي لا ينبئ أبدًا عن الجدل العقلي العميق والصراع الفكري الحاد الذي في داخله.

فتحت المجلد الأول فإذا خيال ابن تيمية يتبدى لي، وإذا به منهمكًا في الكتابة، فسلمت عليه، فرفع رأسه وردّ عليّ السلام.

- ماذا تكتب أيها الشيخ؟

+ "... كنت سئلت من مدة طويلة بعيدة سنة تسعين وستمائة عن الآيات والأحاديث الواردة في صفات الله في فتيا قدمت من حماة، فأحلت السائل على غيري، فذكر أنهم يريدون الجواب مني، لا بد. فكتبت الجواب في قعدة بين الظهر والعصر...

قاطعته:

- تعني ما سمي العقيدة الحموية؟

أجابني بالإيجاب، ثم واصل حديثه

+ "... وذكرت فيه مذهب السلف والأئمة المبني على الكتاب والسنة، المطابق لفطرة الله التي فطر الناس عليها، ولما يعلم بالأدلة العقلية التي لا تغليط فيها، وبينت ما يجب من مخالفات الجهمية المعطلة، ومن قابلهم من المشبهة الممثلة. إذ مذهب السلف والأئمة أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. قال نعيم بن حماد الخزاعي من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله ﷺ تشبيهًا. وكان السلف والأئمة يعلمون أن مرض التعطيل أعظم من مرض التشبيه، كما يقال (المعطل أعمى والمشبه أعشى)، والمعطل يعبد عدمًا والمشبه يعبد صنمًا، فكان كلامهم وذمهم للجهمية المعطلة أعظم من كلامهم وذمهم للمشبهة الممثلة، مع ذمهم لكلام الطائفتين ...".

- وماذا حصل بعد ذلك؟

+ "... حصل بعد ذلك من الأهواء والظنون ما اقتضى أن اعترض قوم على خفي هذه الفتيا بشبهات مقرونة بشهوات. وأوصل إلي بعض الناس مصنفًا لأفضل القضاة المعارضين، وفيه أنواع من الأسئلة والمعارضات، فكتبت جواب ذلك وبسطته في مجلدات. ثم رأيت أن هؤلاء المعترضين ليسوا مستقلين بهذا الأمر استقلال شيوخ الفلاسفة والمتكلمين، فالاكتفاء بجوابهم لا يحصل ما فيه المقصود للطالبين... واستشعر المعارضون لنا أنهم عاجزون عن المناظرة التي تكون بين أهل العلم والإيمان، فعدلوا إلى طريق أهل الجهل والظلم والبهتان، وقابلوا أهل السنة بما قدروا عليه من البغي باليد عندهم واللسان، نظير ما فعلوه قديمًا من الامتحان.

وإنما يعتمدون على ما يجدونه في كتب المتجهمة المتكلمين. وأجلُّ ما يعتمدون كلامه هو أبو عبد الله الرازي إمام هؤلاء المتأخرين، فاقتضى ذلك أن أتم الجواب عن الاعتراضات المصرية الواردة على الفتيا الحموية بالكلام على ما ذكره أبو عبد الله الرازي في كتابه الملقب بتأسيس التقديس، ليتبين الفرق بين البيان والتلبيس، ويحصل بذلك تخليص التلبيس، ويعرف فصل الخطاب فيما في هذا الباب من أصول الكلام، التي كثر بسببها بين الأمة النزاع والخصام حتى دخلوا فيما نهوا عنه من الاختلاف في الكتاب والقول على الله بغير علم... " (بيان تلبيس الجهمية ١/ ٤-٨)

- إذن هذا هو سبب تأليف هذا الكتاب (بيان تلبيس الجهمية)؟

+ نعم.

خشيت أن يستطرد الشيخ في الكلام، ولتلهفي لسماع رأيه في الموضوع سارعت بالطلب منه:

- أريد أن أسألك وبشكل مباشر عن وصف يطلق عليك كثيرًا من خصومك، خاصة المعاصرين...

قاطعني مبتسمًا...

+ التجسيم؟

رغم أني تعجبت من حدسه، لكني بادرته بالجواب:

- نعم. يقولون إنك مجسم. فهل توضح لي المسألة من أصلها؟

+ التجسيم مصطلح يقصد به (وصف الله تعالى وتقدس بأنه جسم).

لم أستطع التريث، فقاطعته بالسؤال:

- وهل تقول إن الله جسم؟

+ أنا لا أثبت أن الله جسم، لكني كغالب الحنابلة والسلف أيضًا لا أنفي ذلك عن الله. بل أتوقف، مع إنكاري التام لمماثلة الخالق للمخلوقين. فالسلف انقسموا فريقين: فريق نفوا الجسمية عن الله، لأنهم رأوا في ذلك تشبيهًا وتمثيلاً. وفريق لم يثبتوا ولم ينفوا لأنهم قالوا هذا وصف لم يرد في الكتاب ولا السنة، فلا نثبته ولا ننفيه، مع قطعنا بنفي النقص ومماثلة المخلوقين عن الله. فـ " السلف والأئمة لم يثبتوا هذه الأسماء [الجسم والجوهر...] لله ولا نفوها عنه، لما في كل من الإثبات والنفي من الابتداع في الدين من إجمال واشتراك، ويثبت به الباطل وينفى به الحق. مع أن السلف والأئمة لم يختلفوا في أن نفاة الجسم أعظم ضلالاً وابتداعًا من مثبتيه، بل الأئمة والسلف تواتر عنهم من ذم الجهمية ما لا يحصيه إلا الله، ولهم أيضًا كلام في ذم المشبهة لكن أقل من ذم الجهمية بكثير. أما لفظ "الجسم" فلا يحفظ عن أحد منهم ذمه ولا إنكاره، كما لا يحفظ عنهم مدحه وإقراره...". "وأول من تكلم بالجسم نفيًا وإثباتًا هم طوائف من الشيعة والمعتزلة، وهم من أهل الكلام الذين كان السلف يطعنون عليهم ...".

- لكنك أنت لا تقول (إن الله جسم)؟

+ لا، ليس لتعليلات أهل الكلام، بل لأن الله لا يماثل المخلوقين، ولأن هذا اللفظ (الجسم) لم يرد في شيء من النصوص إثباته.

- إذن لماذا تركيز خصومك على وصفك بالمجسِّم؟

تبسم ونظر إلي، ثم قال:

+ معرفة أصول الأقوال ومنطلقاتها تساعدك على فهمها وربما تساعدك على عذر من يقول بها.

- كيف هذا؟

+ أهل الكلام أسسوا دينهم على دليل رئيس وهو دليل الحدوث. ورأوا أنه لا يمكن إثبات وجود الله ودحض أقوال منكري وجود الله ومنكري النبوة إلا بثبوته. ولذلك فهم لا يسمحون لأحد بالتعرض لهذا الدليل، لأن أي نقد له يسقط كل استدلالاتهم من أساسها. فهو عندهم من المسلمات.

أراد أن يواصل الشيخ، لكني قاطعته:

- وما هو دليل الحدوث؟

+ دليل الحدوث دليل عقلي، مشهور إلى الآن، على إثبات وجود الله، وأنه مخالف للمخلوقات. فهو في الأصل من أدلة المعتزلة أخذه عنهم الأشاعرة والماتريدية، وهو أشهر أدلة المتكلمين على وجود الله تعالى. والدليل يقول:

الكون حادث

وكل حادث لا بد له من محدِث

إذن الكون له محدث (خالق).

- هذا دليل منطقي بسيط ما الإشكال فيه؟

+ هو في الأصل دليل بسيط، بل قد يبدو لأول وهلة فطريًّا، لكن التفلسف لا يقف بالأمور عند حدودها الدنيا.

- ما زلت لا أفهم

+ أصل هذا الدليل جاء من المعتزلة، والمعتزلة كانوا يريدون مناظرة الدهرية - أي الملحدين - ولذلك كانوا يريدون البدء بهم في الاستدلال من الصفر. فهم يرون أنه لا يمكن الاستدلال عليهم بالقرآن، بل لا بد من إثبات الخالق أولاً ثم إثبات النبوة.

- ما زال سؤالي قائمًا، ما الإشكال في هذا الدليل؟

+ الإشكال هو أنه مع أن كل مقدماته تبدو بدهية، إلا أنه حتى يتم الاستدلال به، وحتى يكون دليلاً عقليًّا فلسفيًّا، يجب إثبات كل مقدمة من مقدماته. فلا بد من إثبات أن الكون (المخلوقات) حادث، ثم إثبات أن لكل حادث محدِثًا.

- هذا يعني أن أجزاء الدليل تحتاج إلى إثبات، مع أنها مسلمة عند كثير من الناس

+ نعم، ولو كانت مسلمة أو معلومة بالضرورة، ففي مقام الجدل الفلسفي لا بد من إثباتها عقليًا.

- وهل أثبت أهل الكلام هذه المقدمات.

+ نعم، سلكوا في ذلك طرقًا مختلفة، وساقوا حججًا على كل مقدمة، لكنهم قد يختلفون في بعض الحجج، وقد لا يسلم لهم خصومهم بعضها. وكلما نقض خصومهم حجة جاء أحدهم بحجة أخرى أو بجواب عن النقض. لأن الأمر وصل إلى قضايا دقيقة وفرضيات تنبني على فرضيات بشكل لا يمكن التحقق منه.

- هل لك أن تعطيني مثالاً؟

+ نعم. كلنا نشاهد هذه المخلوقات التي أمامنا (بما فيها أنفسنا)، ونرى أنها تتغير، فتتغير أحجامها وألوانها وحرارتها، وتتحرك بعد ثباتها وتثبت بعد حركتها. هذه عند المتكلمين تسمى (أعراضًا).

فلكي يثبت المتكلمون المقدمة الأولى (العالم حادث) يلزمهم:

إثبات الأعراض، (وهي الصفات التي تحل بالأجسام)، ثم يلزمهم:

إثبات أنها حادثة (أي وجدت بعد أن كانت معدومة)، ثم يلزمهم:

إثبات استحالة خلو الأجسام من تلك الأعراض، ثم يلزمهم إثبات:

استحالة حوادث لا أول لها (أو ما يسبق الحوادث فهو حادث)

وقد سلكوا في ذلك طرقًا عويصة ودخلوا في جدالات طويلة مع خصومهم وفيما بينهم. وبذلك تحول الدليل البسيط إلى معضلات فكرية يصعب تصورها ويصعب حلها، إلا بالتسليم.

- فعلاً! الموضوع الذي بدا بدهيًا في أول الأمر تعقد كثيرًا. وقد ذكرني هذا بقول ابن الوزير رحمه الله (واعلم أن توسيع دائرة الأسئلة يؤدي إلى الخوض في الاحتجاج على الضروريات - البدهيات - بالظنيات...).

+ صدق في هذه!

- لكن ما علاقة إثبات وجود الخالق بالتجسيم؟

+ بسبب هذا الدليل الذي يرونه أساس الدين، ولا يمكن أن تقوم عقيدتهم إلا عليه، لا يقبلون أي شيء يخالفه، فهم يرون أن صفات الله (أعراض) قياسًا على صفات الأجسام، وما قامت به الصفات لا بد أن يكون جسمًا، والأجسام متساوية، فمن ثَم - لو سلموا بذلك - ينتقض دليلهم في التفريق بين (المحدَث) - المخلوق - والقديم وهو الله. ولذلك فكل

من يثبت الصفات - ولو كانت ثابتة بالكتاب والسنة - يلزمه عندهم أن يكون مجسمًا. كذلك ما قامت به الحوادث (وهي عندهم الصفات) فهو حادث. فلا يمكن عند الأشعرية إثبات حدوث العالم وإثبات الخالق إلا بنفي قيام الحوادث به. وإثبات الصفات - ما عدا الصفات السبع التي دل عليها العقل عندهم - يعني إثبات حلول للحوادث بالخالق.

" والمقصود هنا أن أولئك المتكلمين لما راموا إثبات وجود الصانع وخلق العالم سلكوا الطريقة التي ابتدعوها من الاستدلال على حدوث الموصوفات بحدوث صفاتها أو بحدوث صفاتها وأفعالها وسموا ذلك أجسامًا أو جواهر وسموا صفاتها وأفعالها أعراضًا وبنوا الحجة على مقدمتين: إحداهما أن الموصوفات لا تخلو عن أعراض حادثة من صفات وأفعال تعتقب عليها. والثانية أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. فاحتاجوا في تقرير المقدمة الأولى إلى ثبوت الأعراض أو بعضها وحدوثها أو حدوث بعضها وأن الأجسام لا تخلو منها أو من بعضها فتارة يستدلون بما شهدوه من الاجتماع والافتراق وتارة يقولون إنه لازم لها من الحركة والسكون وهذه الأقسام الأربعة هي الأكوان عندهم وهذه حجة الصفاتية يحتجون بالأكوان ويقولون إن الله تعالى لا يوصف بها وآخرون فيهم لا يحتجون إلا بجواز الاجتماع والافتراق دون الحركة والسكون حتى يستقيم له أن يصف الرب بذلك ويقول إن هذا هو الذي لا تخلو الجواهر منه وهو مبني على الجوهر الفرد وتارة يدعي بعضهم حدوث جميع الأعراض زعمًا منه أن العرض لا يبقى زمانين ويدعون مع ذلك أن كل جسم فلن يخلو عما يمكن قبوله من الأعراض أو عن ضد ونشأ بينهم في هذا من المقالات والنزاع ما يطول ذكره. وأما المقدمة الثانية فكانت

في باديء الرأي أظهر ولهذا كثير منهم يأخذها مسلمة فإن ما لا يخلو عن الحادث فهو مقارنه ومجامعه لا يتقدم عليه وإذا قدر شيئان متقارنان لا يتقدم أحدهما الآخر وأحدهما حادث كان الآخر حادثًا..."

- لكن كيف تصرفوا في هذه الصفات السبع التي أثبتوها؟

+ وقعوا في مأزق. ولذلك تكلفوا في تفسيرها بأشياء تخرجها عن معناها الذي يفهمه العقلاء، إلى معانٍ تجعلها تخالف العقل!

- كيف؟

+ في كلام الله قالوا بالكلام النفسي القديم. يعني أن الله لا يتكلم بحرف وصوت إذا شاء، كما هو صريح النصوص، بل كلامه نفسي قديم. والقرآن عبارة عنه. فالقرآن في النهاية عندهم مخلوق!

- وهل تقول إن الأشاعرة يقولون إن القرآن مخلوق؟

+ هذه هي حقيقة كلامهم، فهم وإن راوغوا في "كلام الله" إلا أنهم يصرحون بأن هذا القرآن المتلو مخلوق.

- وماذا عن السمع والبصر؟

أيضًا يثبتونهما لكنهم يفسرونهما بتفسيرات غير عقلية! فهم لا يفسرون السمع بسماع المسموعات، ولا البصر برؤية المبصرات، بل يفسرونهما بما يمكن أن ينتهي بالعلم فقط.

- ولماذا هذا التكلف؟!

+ كل ذلك فرارًا من أن يثبتوا أن "يحدث" من أفعال الله شيء لم يكن حادثًا. لأن ذلك يفسد قاعدتهم (أن ما تحل به الحوادث - على تفسيرهم - فهو حادث). ولذلك انفتحت عليهم أبواب من

الإشكالات لا يجدون لها حلاً، ومن طالع كتب متأخريهم الرازي والآمدي رأى هذا.

فـ "... هذه الطرق الكلامية التي ابتدعتها الجهمية والمعتزلة [أي دليل الحدوث] وأنكرها سلف الأمة وأئمتها، صارت عند كثير من النظار المتأخرين [من الأشاعرة ونحوهم] هي دين الإسلام، بل ويعتقدون أن من خالفها فقد خالف دين الإسلام، مع أنه لم ينطق بما فيها من الحكم والدليل لا آية من كتاب الله ولا خبر عن رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان. فكيف يكون دين الإسلام بل أصل أصول دين الإسلام مما لم يدل عليه لا كتاب ولا سنة ولا قول أحد من السلف؟" منهاج السنة ١/ ٣١٥

- إذن هذا هو الدليل الذي من أجله ردوا كثيرًا من النصوص؟

+ نعم، بل أيضًا تأصل عندهم حتى صار دليلاً منهجيًا، بحيث لا يقبلون من حيث المبدأ أي دليل يتعارض معه.

- فأنت لا تقول بالتجسيم كما يتهمونك.

+ نعم. لكنك لم تسألني ماذا يقصدون بالتجسيم؟

- صحيح، لأني ظننته واضحًا!

+ الأمور الشرعية في كثير من الأحيان واضحة، لكن إذا دخلتها الفلسفة والمنطق والتكلف صارت غير ذلك.

- كيف هذا؟

أهل الكلام نفوا التجسيم، أي ينفون أن يكون الله سبحانه وتعالى جسمًا. لكنهم اختلفوا في ما هو الجسم؟ فالفلاسفة لهم تعريف، وأهل

الكلام لهم تعريف اختلفوا في تفاصيله لكنهم متفقون في الجملة. فهم يرون أن الجسم ما تكون من الأجزاء المفردة.

- وما هي الأجزاء المفردة؟

+ هي كائن يفترضون أنه أصغر الموجودات، بحيث لا يمكن أن ينقسم. ويسمونه الجزء المفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ. ويرون أن أي جسم مخلوق (أي حادث) مكون من هذه الأجزاء. ثم اختلفوا فمنهم من قال يمكن أن يتكون من جزأين، ومنهم من قال من ثلاثة ومنهم من قال ثمانية ومنهم من قال أكثر.

- واضح ..

+ لكن لاحظ أن هذا افتراض افترضوه، فهم لا يملكون دليلاً حسيًا على ذلك، وليس في النصوص الشرعية ما يدل على ذلك. ومع ذلك أقاموا دليلهم في إثبات الله وتحديد صفاته وتفسير كلامه على هذا الأصل. ولاحظ أيضًا أن تعريفهم للجسم غير التعريف اللغوي، فهم ابتدعوا مصطلحًا جديدًا ليس في اللغة ولم يأتِ به الشرع، بمعنى أن الصحابة لم يعرفوه. ومع ذلك يريدون أن يحاكموا به عقائد الناس، ويريدون أن يحكموا به على النصوص.

- أمر عجيب، لكن ما علاقة هذا باتهامك بالتجسيم؟

+ هم قرروا أن المحدثات (أي المخلوقات) أجسام، أي مكونة من هذه الجواهر الفردة، ولذلك تقبل الأعراض، أي الصفات كالألوان والحرارة ونحوها. وجعلوا قبولها لهذه الأعراض وتغيرها بتغير هذه الأعراض دليلاً على أنها مخلوقة ومحدثة، ولأنها مركبة ولأنها محتاجة

لغيرها. وبالتالي فالله بحكم أنه "قديم" أي غير محْدَث أو مخلوق يجب أن يكون مخالفًا للمخلوقات التي هي أجسام. فكل ما تحله الأعراض أو الصفات أو الحوادث فهو عندهم جسم. فعندهم، من أثبت لله صفة فهو يشبهه بالأجسام. فالفلاسفة يرون أن المعتزلة مجسمة لأنهم يثبتون شيئًا من الصفات، والمعتزلة يرون الأشاعرة مجسمة لأنهم يثبتون الصفات السبع التي يرى الأشاعرة أن العقل دل عليها!

- وما هي؟

+ الحياة والعلم والقدرة والإرادة والبصر والكلام والسمع. ويسمونها صفات المعاني.

أجابني ثم واصل حديثه ..

+... والأشاعرة يرون أن من يثبت الصفات على طريقة السلف مجسم! فهم يلزمونني (ويلزمون كل من أثبت الصفات كما جاءت في النصوص) بأني مجسم.

- لكن كيف يفرق الأشاعرة بين هذه الصفات وغيرها؟

+ هذا ما ألزمتهم به. فهم يثبتون هذه الصفات السبع ولا يرون أن فيها تجسيمًا - بحسب تصورهم للتجسيم. وأنا أقول لهم إننا نقول في الصفات التي تنكرونها مثل ما تقولون في الصفات التي تثبتونها.

- كيف هذا؟

+ هم يقولون لله علم وللمخلوق علم. ولا يرون في هذا تجسيمًا ولا يرون فيه تشبيهًا، لأنهم سلموا أن علم الخالق يختلف عن علم المخلوق. وهذا صحيح. لكننا نقول لهم طبقوا القاعدة على بقية الصفات التي لا

تثبتونها، فقولوا له رحمة لا تشبه رحمة المخلوق، وله غضب ورضا كذلك.

- إذن هذا هو أصل المسألة، هم يلزمونك بالقول بالتجسيم، بناء على قواعد وضعوها واتفقوا عليها، ويخالفهم فيها غيرهم.

+ بالضبط، خصومهم من المعتزلة يطبقون المنهج ذاته عليهم فليزمونهم بالتجسيم لأنهم أثبتوا بعض الصفات. وإلزام المعتزلة لها قد يلزمهم لأنهم يوافقهونهم على أصولهم العقلية، أما أنا فلا أوافقهم. والسلف أثبتوا الصفات ولم يَرِدْ عنهم أنهم نفوها، أو وجهوا الناس لعدم اعتقاد معناها. فمعنى هذا أن التجسيم ليس من العقيدة نفيًا ولا إثباتًا، وإنما المطلوب إثبات الصفات على الوجه الذي يليق بالله، مع اعتقاد عدم مماثلة المخلوقين (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير). فـ (ليس كمثله شيء) نفي قاطع للمماثلة، و (هو السميع البصير) إثبات واضح وصريح للصفات.

التشبيه

- أرى بعضهم أيضًا يتهمك بالتشبيه

+ هم لا يتهمونني أنا فقط، بل يتهمون - تصريحًا وتلميحًا - كل مَنْ يُثبت الصفات الفعلية كما وردت، مثل النزول والاستواء والرحمة والكلام، على ظاهرها اللائق بالله، يتهمونه بالتشبيه. والتشبيه والتجسيم متقاربان أو متلازمان عند أهل الكلام. فإذا عرفت مصدر القول بالتجسيم كما شرحت لك عرفت حقيقة التشبيه عندهم.

وعلى أي حال فما يقوله الأشاعرة عن أتباع السلف من أنهم مشبهة أو مجسمة، يقوله المعتزلة عن الأشاعرة! - كما ذكرت لك - فالمعتزلة يقررون، عقليًا، أن من يثبت الصفات حتى على طريقة الأشاعرة مجسم ممثل!

فيجب أن تعلم أن "لفظ التوحيد والتنزيه والتشبيه والتجسيم ألفاظ قد دخلها الاشتراك بسبب اختلاف اصطلاحات المتكلمين وغيرهم، وكل طائفة تعني بهذه الأسماء ما لا يعنيه غيرهم. فالجهمية من المعتزلة وغيرهم يريدون بالتوحيد والتنزيه نفي جميع الصفات [حتى الصفات التي أثبتها الأشعرية]، وبالتجسيم والتشبيه إثبات شيء منها، حتى إن من قال إن الله يُرى أو إن له علمًا فهو عندهم مشبه مجسم. وكثير من المتكلمة الصفاتية يريدون بالتوحيد والتنزيه نفي الصفات الخبرية [أي التي لم تثبت عندهم بالعقل، إنما ثبتت بالنص] أو بعضها، وبالتجسيم والتشبيه إثباتها أو بعضها...".

ويحضرني قول أبي سعيد الدارمي رحمه الله في رده على الجهمي المريسي: "... وأما قولك إن كيفية هذه الصفات وتشبيهها بما هو موجود في الخلق خطأ، إنا لا نقول إنه خطأ، كما قلت، بل هو عندنا كفر. ونحن لتكييفها وتشبيهها بما هو موجود في الخلق أشد أَنَفًا منكم، غير أنا كما لا نشبهها ولا نكيفها لا نكفر بها ولا نكذب ولا نبطلها بتأويل الضلال...".

- رد مسدد، ووالله إني لأتعجب كيف يتجاهلون ويعمون عن النصوص الكثيرة في القرآن والسنة التي تثبت صفات الفعل لله جل وعلا من النزول والإتيان والمجيء والضحك والمحبة والغضب ونحوها...

+ لك أن تعجب، لكن هذا هو الواقع.

النزول

حديث الشيخ عن التجسيم والتشبيه أثار في ذهني قضية طالما رأيت خصوم الشيخ يشغّبون بها عليه، ويتلقاها بعضهم عن بعض دون تحقيق.

توقفت وتهيبت أن أسأله، لكنه ابتدأ الحديث لما رآني مترددًا، وقال:

+ يبدو أن لديك سؤالاً تتردد في طرحه؟

- نعم، وأنا محرج منك ..

+ قلت لك مرات، لا تتحرج، فأنا مجرد خيال في ذهنك

- يذكر ابن بطوطة في رحلته المشهورة، أنه رآك في جامع دمشق تخطب - رفع الشيخ حاجبيه وهو ينظر إلي - فأكملت: وأنك تقول (إن الله ينزل من السماء كنزولي هذا)، ونزلت من المنبر درجات!

فتغير وجه الشيخ، وقال:

+ أستغفر الله أستغفر الله .. سبحان الله سبحان الله، تعالى الله!

- هذا ما هو مكتوب في رحلته. وهي ليست عندي في مكتبتي. لكن ذكرها كثير من الكتاب. وقال أيضًا عنك: "إن في عقله شيئًا"! يعني الجنون! وقد نقدها كثيرون، نقدًا علميًا دقيقًا، لكن ما زال كثيرون يرددونها بسذاجة وبلاهة.

+ هذا طبيعي، فالإنسان يتساهل في قبول ما يوافق هواه ويؤيد رأيه.

- وما رأيك فيما قاله؟

قبل أن أقول لك رأيي فيما قاله، دعني ألخص لك رأيي في مسألة النزول، والذي أراه قول السلف.

- تفضل هذا يسهل الأمر علي.

+ قولي فيه مثل قولي في سائر الصفات الفعلية. كل ما ثبت لله من صفة فعل مثل الاستواء أو النزول أو المجيء أو الضحك ونحوها، نثبته لله بمعناه العام المعروف في اللغة العربية ولا نسأل عن ما وراء ذلك، مع اعتقاد أنه على ما يليق بالله عز وجل واعتقاد انتفاء أي نقص في حق الله، أو تمثيل له بخلقه. وقاعدتنا في كل الصفات قبول السلف لها دون استفسار عن معناها أو تأويل لها أو تحذير للناس من فهمها، وقول الإمام مالك رحمه الله (الاستواء غير مجهول والكيف غير معلوم والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب) فضع أي صفة مكان (الاستواء) واعتقد التنزيه وابتعد عن التشبيه بالمخلوقات، يستقمْ لك فهم أي صفة وردت في النصوص الصحيحة وتجمع بين قبول النصوص والبعد عن تشبيه الله بخلقه.

- تلخيص جيد، وضحَ الأمرُ لي أكثر. دعنا الآن نعدْ لرواية ابن بطوطة.

+ أولاً أنا لم أرَ هذا الشخص ولم ألتقِه. فقد دخل دمشق بعد ما أُدخلت السجن، فكيف يكون رآني؟! كما أني لم أخطب على منبر الجامع، وإنما كنت أفسر القرآن على كرسي. والأهم من هذا أن لي كتابًا كاملاً في تفسير حديث النزول بينت فيه المعنى الصحيح الذي يتوافق مع مذهبي في الصفات - مذهب السلف، وهو يخالف ما نقله عني. وأنا أتحدى أن يأتي أحد بكلام

من كتبي أقول فيه إن نزول الله مثل نزولي، أو مثل نزول أحد من المخلوقين. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. كما أني أنبه من يردد هذا الكلام أو يصدقه، إلى أن هذا أمر خطير، ففيه نسبة ما لا يليق بالله، جل وعلا، من جهة وفيه كذب على مسلم بما قد يكون فيه تكفيره، فمعلوم كلام العلماء - الإمام أحمد وغيره -أن من قال في صفات الله إنها كصفات المخلوقين فهو كافر.

- كيف إذن قال هذا؟

+ لا أستبعد أن هذه الزيادة مكذوبة عليه. أو أنه سمع الكلام من أحد خصومي فدلّس وقال إنه رآني. وعلى أي حال كتاب هذا الرجل ليس من الكتب المعتمدة في نقل الأقوال.

- صحيح، واعتماد خصومك عليه مؤشر على إفلاسهم، وتشبثهم بالقشة في نقدك.

+ نعم، وكتبي مليئة بالكلام في الصفات، وكلها تنزيه لله عن مشابهة المخلوقين، بل لي رسالة في (شرح حديث النزل) فسرت فيها الحديث بما أقرره في كتبي ورسائلي في الكلام على الصفات. فكيف يتركون هذا كله ويتشبثون بنقل من كتاب غير موثوق؟!

- نعم وما أحسن ما قال ابن حجر - شارح البخاري - في سياق الثناء عليك والدفاع عنك!

+ وماذا قال رحمه الله؟

- قال: " الواجب على من تلبس بالعلم أو كان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشتهرة أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل..." (الرد الوافر ص ٢٤٨)

+ كلام جميل، وهذا ما دعوت له في كثير من كتبي. ولو اتبع خصومي هذه القاعدة لزال أكثر الخلاف، ولاتّضَح الحق لهم.

توقف الشيخ فجأة. وظننت أنه سينهي الحديث هنا، لكنه أخذ نفسًا عميقًا أحسست فيه الكثير من التحسر على ما فات .. ثم نظر إليّ وقال:

+ يا بني.. اختلفت أنا وخصومي في أمور كثيرة، لكن كلها ترجع إلى أمر واحد.

- وما هو هذا الأمر؟

+ اتباع النص، بحسب ما فهمه السلف الصالح، وتقديمه على الرأي والذوق. فأزمتنا أزمة منهجية. فأنا دائمًا أرجع الخلاف إلى الأصل المنهجي الذي قاد إليه، وأحاول أن أتعامل معه على هذا المستوى. وعندما أنظر له من ذلك المستوى المنهجي تتبين لي التفرعات وأقوال السلف فيها، فأعطي رأيي فيها وأنا مطمئن ولو خالفت السائد عند علماء عصري. بينما غيري يجمد على ما استقرت عليه تلك الفروع في عصره أو عند طائفته أو عند من يعظمه من العلماء فيبقى حبيسًا لذلك.

ولعلك تلاحظ أن غالب من يخالفني ويؤلف ضدي - خاصة من المتأخرين - يكررون الكلام نفسه ويرجعون تقريبًا إلى المصدر ذاته، دون تغيير يذكر ولو في العبارة. وستجد أن غالبهم، بل ربما كلهم، يعتمد على قواعد وضعتها طائفته، ولا يعتمد على نصوص أو نقول عن علماء من أئمة الإسلام المعروفين، من الصحابة والتابعين وتابعيهم. أنا أريد من يحاكمني أن يحاكمني إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأقوال أئمة السلف.

- نعم يا شيخنا، ووالله إن من يقرأ لك ولخصومك لَيرى هذا ظاهرًا لا يحتاج إلى بيان، وإني لآسى لما يبذله خصومك في ترديد تهم بليت من كثرة تردادها مع بيان سقوطها وضعف حجتها.

+ لعل هذا لا يخلو من حكمة، ففي هذا ابتلاء للناس وتمحيص للمؤمنين، والرد على أهل البدع وبيان خطئهم من الجهاد، ومن نشر العلم والذب عن السنة، وهو مما يرفع الله به الدرجات في الدنيا والآخرة.

شعرت بتعب شديد، كما أني أردت أن أتوقف عن الحوار مع الشيخ لأسترجع ما ذكره وأتأمله، لعمقه ولأهميته. ولذلك طلبت من الشيخ أن نتوقف على أن أعود له في أقرب فرصة، لأسأله عن موضوع مهم، ناله فيه أيضًا أذى كثيرٌ. فودعني ثم اختفت صورته، وبقيت أنظر إلى الكتاب وأقلب بعض صفحاته، وأتعجب من قوة الشيخ في رده وجلده وسعة حجته. وأتعجب أيضًا من خفاء هذه القضايا على خصومه. رحمه الله.

التصوف

صليت الفجر، وجلست أقرأ وردي اليومي من الأذكار، ثم عدت إلى البيت مسرعًا، وفي ذهني أن أسأل ابن تيمية عن موضوع تسبب في نفرة كثير من الناس منه، وهو موضوع التصوف.

فتحت كتاب التحفة العراقية .. فوجدت ابن تيمية جالسًا متربعًا، في الصف الأول. صلى الناس صلاة الفجر، وانصرف أكثر المصلين. يوجد في المسجد أفراد متفرقون، بعضهم يقرأ القرآن، وبعضهم يدعو ويسبح. يوجد حلقة صغيرة في وسط المسجد من الجهة اليمنى للصف، كأنهم مجموعة من الطلاب يتحلقون حول شيخ لهم. لم أستطع أن أسمع ما يقولون. رمقت ابن تيمية، ولم أتبين هل رآني أم لا؟ أردت أن أسلّم عليه لكني رأيته منهمكًا في الأذكار يدعو ويناجي ربه، وربما رفع صوته أحيانًا بحيث أسمع الصوت ولا أكاد أتبين ما يقول، كنت أسمعه يتلو بعض الآيات من حين لآخر، وكان أحيانًا يكرر الفاتحة وقد يرفع صوته ببعض آياتها[1]، وربما رفع صوته بالاستغفار. دققت النظر فيه، كان مغمض العينين تقريبًا، وكان أحيانًا يرفع بصره إلى السماء ويقلب بصره فيها. انتظرته حتى يفرغ من ذلك، لكنه أطال أكثر مما توقعت. انصرف أكثر من في المسجد، لم يبق إلا أنا وهو والقليل من الناس متفرقين في المسجد. طلعت الشمس، وبدأ ضوؤها يتخلل إلى ساحات المسجد.

---

(١) الأعلام العَلِيَّة ص ٣٨.

ارتفعت الشمس، وقام من بقي في المسجد يصلي ركعتين ثم انصرفوا جميعًا. مكث الشيخ بعدهم حتى ارتفعت الشمس. ثم قام وصلى ركعتين أطال فيهما الركوع والسجود. ثم سلم فرآني.

+ كم لك هنا؟

- منذ أن صلينا الفجر

+ لم أشعر بك

- لاحظت هذا. ألا تتعب من هذا الجلوس؟

+ كيف أتعب؟! هذه غدوتي لو لم أفعل لسقطت قواي... الذكر حياة القلب، وله تأثير على البدن ..

- إذن لماذا أنت خصم للصوفية؟

كان يحدثني وهو مستقبل القبلة ومطرق رأسه، فلما سألته رفع رأسه وفتح عينيه ونظر إليّ، وقال:

+ أولاً أنا لم أخاصم أحدًا. هم الذين خاصموني، وسعوا بي إلى السلطان وشنعوا علي وقالوا فيّ أشياء لم أقلها. وما علاقة الصوفية بالذكر؟

- أقصد أنك تجلس جلسات طويلة للذكر، وترى أهميته.

+ ومن ينكر فضل الذكر؟! إنه ليقف الأمر في خاطري وتستغلق علي المسألة فأستغفر الله ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر وينحل الإشكال.

- فلماذا الصوفية ينفرون منك ويعدونك خصمًا لهم؟

+ يجب أن نوضح معنى التصوف أولاً، لأن كثيرًا من خصومي يستغلون المصطلحات والمفاهيم غير الواضحة، ويخلطون الحق بالباطل، ليشوهوا سمعتي عند الناس.

- هذا حسن.

+ ما يسمى التصوف في بداياته كان عبارة عن الزهد والورع والإكثار من الذكر والعبادة. وعلى هذا سار جيل من الصحابة والتابعين. فإذا تجاوزنا (الاسم) فالتصوف بهذا المعنى أمر مقبول ومشروع، بل هو تصوف شرعي، إن صحت العبارة. وأي متمسك بالسنة عامل بها هو بهذا المفهوم صوفي. فالزهد والإكثار من التعبد والذكر أمور مشروعة.

- إذن أين المشكلة؟

+ المشكلة أن التصوف لم يَسِر على هذا. بل بسبب دخول مؤثرات خارجية من الديانات الأخرى غالبًا ومن البدع التي نشأت بين المسلمين، تحول التصوف إلى رسوم وشعائر وتقديس للأشخاص، وارتبط بالخرافة وبكثير من البدع والشركيات، ثم دخل المؤثر الفلسفي، فدخل على المتصوفة القول بوحدة الوجود أو وحدة الأديان. وهذا هو الذي أعارضه وبشدة، لأنه يتطور ليصبح انسلاخًا من الدين إما على شكل ممارسة الشرك الصريح بدعاء الأولياء والتبرك بهم، أو بالقول بوحدة الوجود.

- وحدة الوجود! أسمع بها كثيرًا لكن أريد أن أستوضح معناها منك.

-.... وحدة الوجود مذهب فلسفي صوفي كفري يقول بأن الله والموجودات (الطبيعة) حقيقة واحدة، وأن الله هو الوجود الحق، ويعتبرونه - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - صورة هذا العالم المخلوق، فكل ما

نراه هو في الحقيقة الله. وبعض أفكاره انتشرت في فكر أكثر أهل الطرق الصوفية. وهذا المذهب موجود قبل الإسلام، وله أتباع في كل الديانات تقريبًا. فكل من يعبد شيئًا هو - كما يقولون - يعبد الله.

هل يعقل أن يقول بهذا من يدعي الإسلام؟

+ هذا هو الواقع، في كلام ابن عربي وابن سبعين.

- أعوذ بالله!

+ إذا انحرف الإنسان عن طريق الوحي، فلا تتعجب من أي شيء يأتي به. فتصورات الناس وخيالاتهم لا حد لها. وأنا لست أول من أنكر هذا التصوف البدعي... فقد سبقني وجاء بعدي الكثير ممن أنكروه. بل يكفيك فيهم قول الإمام الشافعي فيما روى البيهقي في مناقب الشافعي (٢ ـ ٢٠٨) أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: سمعت أبا محمد جعفر بن محمد بن الحارث يقول: سمعت أبا عبد الله: الحسين بن محمد بن بحر يقول: سمعت يونس بن عبد الله الأعلى يقول: سمعت الشافعي يقول: لو أن رجلاً تصوَّف من أول النهار لم يأت عليه الظهر إلا وجدته أحمق. فهو لم يقل هذا إلا لما رآه من خرافاتهم وبدعهم.

- نعود إلى موقفك من الصوفية.

+ المتصوفة وقعوا في الخطأ المنهجي ذاته الذي وقع فيه أهل الكلام، وإن اختلفت المصادر.

- كيف هذا؟

+ أتذْكرُ عندما نبهتك على أهمية المنهج؟ وقلت لك إن سبب ضلال أهل الكلام منهجيّ؟

- نعم أذكر، لكن ما علاقة خطأ أهل الكلام بخطأ المتصوفة؟ فالفرق بينهم كبير.

+ صحيح، لكنه منهجيًا واحد.

- كيف؟

+ أهل الكلام تأثروا بالفلاسفة قدموا عقولهم وآراءهم على النص وعلى فهم السلف. والمتصوفة قدموا "أذواقهم" وما يستحسنونه وما تهواه أنفسهم وتميل إليه عاطفتهم، وما يحسونه في قلوبهم على النص وعلى فهم السلف وعملهم. فمصدر الخلل لدى الفريقين تأخير ما حقه التقديم، وهو النص وعمل السلف الصالح. فالصوفي يتبع ذوقه، وما تقوده له عاطفته، وحبه للرسول ﷺ ومن يراهم أولياء وصالحين، سواء كان حبًا صادقًا أو مجرد دعوى. فهو يقدم عاطفته وذوقه في التشريع، فلا يتحرج في أداء العبادة على الوجه الذي يرى أنه يزيد الوجد عنده أو حتى يخترع عبادة يرى أنها تزيد إيمانه أو وجده أو تسبب له حالة وجدانية يتلذذ بها. وهو يرى أن هذا الوجد والتلذذ دليل على أنها طريقة صحيحة. ولذلك هو يحتقر أصحاب المنهج العقلي من علماء الكلام، وربما احتقر أصحاب المنهج الأثري، لأنهم يقتصرون على العبادات الواردة التي يرون هم أنها لا تحقق الوجد واللذة الروحية التي يجدونها. ولذلك لا يدخلون العقل ولا يدخلون العلم الشرعي في منهجهم وطريقتهم.

- وهل المتصوفة فئة واحدة؟

+ بالتأكيد، لا. فهم يختلفون بحسب بعدهم عن السنة وتلبسهم بالبدع. فـ" المتصوفة تارة على طريقة صوفية أهل الحديث، وهم خيارهم

وأعلامهم، وتارة على اعتقاد صوفية أهل الكلام، فهؤلاء دونهم وتارة على اعتقاد صوفية الفلاسفة [مثل ابن عربي وأمثاله]".

- وأنت ترى أن منهج هؤلاء وأولئك غير صحيح

+ نعم. فالدين اتباع، وسنة وتقيد بنصوص الوحي بحسب ما فهمه السلف، وبحسب طريقتهم في الاجتهاد والاستنباط. والعقل وحده لا يستقل بمعرفة الحق، وكذلك الذوق والوجد. ولذلك فأصحاب المنهج الكلامي غالبًا ينتهون إلى الحيرة لأن العقل لا يدلهم على شيء وتتكافأ عندهم الأدلة في الأخير، بينما ينتهي الأمر بأصحاب الوجد والذوق إلى الخرافة وربما القول بوحدة الوجود، بحيث لا يرون في الكون إلا الله. وقد يبدأ انحراف التصوف صغيرًا ويركز على الشكليات ويقع في بدع صغيرة، لكنه ينتهي غالبًا بالبدع الكبيرة وبانحرافات عقدية وعملية قد تؤدي إلى الخروج من الملة. ولذلك كان من منهج السلف البعد عن البدع ولو كانت صغيرة.

بعد أن عرفت منهج الشيخ وموقفه من التصوف، أردت أن أدخل لموضوع له علاقة بالتصوف، بل ربما يكون هو أهم موضوع ينقمه المتصوفة على ابن تيمية.

التوسل

ثار في ذهني عدد من الأسئلة عن هذا الموضوع الذي أشغل كثيرًا من العلماء منذ وقت ابن تيمية، ولم يهدأ الخلاف فيه منذ ذلك الوقت، بل صار نقطة مفصلية في الدعوة والفكر. ذلك هو موضوع (التوسل). ولا يمكن أن يطرح سؤال عن التوسل الآن إلا ويأتي اسم ابن تيمية (أو تلميذه المتأخر محمد بن عبد الوهاب). ولذلك أردت أن أجمع أكبر قدر ممكن من الأسئلة لأطرحها على ابن تيمية، وقررت أن أطّلع قبل ذلك على أهم كتب خصومه في هذا المجال. وتأملت كتب ابن تيمية لأرى أيها أقرب للموضوع حتى أجده فيها فوجدت له كتبًا ورسائل وردودًا كثيرة في الموضوع، لكني توقعت أن أجده في كتابه الذي طبع باسم (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة. فتحت هذا الكتاب، ولكن على غير ما توقعت، لم أجد ابن تيمية! بل ظهر لي صورة مكان غريب مهجور، لم أستطع تبين معالمه. وبعد تأمل تبين لي أنه مقبرة. أصابني نوع من الاشمئزاز والأسى في الوقت نفسه، وخشيت أني فقدت ابن تيمية. فهممت أن أغلق الكتاب ظنًّا مني أني إنما كنت في حلم وانتهى، وغشاني حزن عظيم. "لقد كنت أحلم، ولم أعد أرى ابن تيمية". لكن قبل إغلاق الكتاب لمحت شيئًا بين تلك القبور، وإذا به شخص إنسان واقف، لا يكاد يتحرك. ويا لفرحتي، إنه ابن تيمية.

اقتربت منه، فإذا به يمشي بين القبور، ويتأملها ويدعو، وأحيانًا يتغير وجهه ويستغفر، وربما أشاح بوجهه عن بعض القبور.

سلمت عليه فلم يسمعني في المرة الأولى لانصرافه وعني ولانشغال ذهنه - فيما يظهر لي - ولكوني سلمت بصوت منخفض. فأعدت السلام مرة أخرى فانتبه لي، فسألته:

- ماذا تفعل أيها الشيخ؟

+ أزور القبور، وأسلم على أهلها، وأدعو لهم. امتثالاً لأمر النبي ﷺ وتطبيقًا لسنته.

- لم يكن من الصعب عليّ استنتاج هذا، لكن كنت فقط أريد التيقن، لأنه يشاع عنك في كتب خصومك أنك تحرم زيارة القبور. .

+ سبحان الله! وهل يصدق هذا عاقل! وهل يقبل ذلك أحد عرفني أو قرأ كتبي؟! لكنه الهوى والظلم، والعياذ بالله.

- صحيح موضوع زيارة القبور من القضايا التي كان خصومك وما زالوا يكثرون الحديث عنها.

+ يكثرون الحديث، لكنه حديث مكرر، وقد رددت على كل إشكالاتهم في حياتي، وردّ عليهم كثير من طلابي بعدي، لكن في كل عصر يأتي من يكرر كلامهم، ولا يلتفت إلى ما قلته في نقضه. وهذه عادة أهل الهوى، فأهل الهوى لا يريدون ما دل عليه الدليل، بل يريدون ما تهواه أنفسهم.

- حدثني ما أوجه الخلاف بينك وبين خصومك في هذه المسألة.

+ انظر يا بني، هنا يتقاطع عدد من القضايا، وتتداخل ويصعب التفريق بينها، لكن من أخذ بأصل كل مسألة واعتصم فيه بالنصوص وبأقوال الصحابة وفعلهم تبين له الحق فيها.

- إذن ما المشكلة؟

+ قبل أن أدخل في المشكلة دعني أقدم لك بمقدمة مهمة تفيدك عندما يشكل عليك أمر علمي من أمور الخلاف.

- كلي شوق لذلك. فأنا فعلاً تكثر عليّ مسائل الخلاف ولا أعرف كيف أتعامل معها.

+ إذا أردت أن تعرف الحق، في مسألة اختلف الناس فيها، فابدأ بمعرفة ما قاله الله وما قاله رسوله - ﷺ - أولاً، وما كان عليه الصحابة والأئمة العلماء في العصور الأولى قبل نشوء الفرق وانتشار البدع. "... ونحن نذكر ما يستفاد من كلام النبي ﷺ مع ما يستفاد من كلام الله تعالى فيصل المؤمن إلى ذلك من نفس كلام الله ورسوله فإن هذا هو المقصود. فلا نذكر اختلاف الناس ابتداء؛ بل نذكر من ذلك - في ضمن بيان ما يستفاد من كلام الله ورسوله - ما يبين أن رد موارد النزاع إلى الله وإلى الرسول خير وأحسن تأويلاً وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة..." (الفتاوى ٧/ ٦) أما كثير من المتأخرين فيأخذ القول تقليدًا عمن تقدم، ويعتقد أنه الصواب، ثم يذهب يستدل له ويرد الأدلة التي تخالفه.

- هذه قاعدة حسنة. دعنا نعدْ لمشكلتك مع خصومك في زيارة القبور

+ المشكلة أن المتأخرين يريدون أن يأخذوا أقوال العلماء المتأخرين وما تعارفوا عليه دليلاً في ذاته لتسويغ ما يفعله العامة والجهال، ثم يستدلون عليه إما بأدلة صحيحة لكن يستدلون بها بشكل خاطئ، أو بأدلة ضعيفة أو مكذوبة.

- حسنًا.. ما هي هذه القضايا التي تتداخل في هذا الموضوع؟

+ التبرك وزيارة القبور والتوسل وشد الرحل والبدعة. وكل مسألة من هذه المسائل متعلقة بالأخرى، وفيها قضايا خطيرة قد تصل إلى حد الشرك. والمشكلة أن هذه القضايا يمارسها العوام وأكثر الناس، ولذلك لا بد من إشاعتها والحديث عنها وإعطاء حكم فيها. فهي ليست كالقضايا العلمية النظرية التي لا يتناولها إلا العلماء وعند الحاجة، بل هي قضايا عملية يحتاجها كل الناس.

- كما أنها مرتبطة بعادات الناس التي ينشؤون عليها.

+ صحيح، وهذا ما يجعل قبول قولي فيها من بعض العلماء صعبًا، لأن ذلك يستلزم نهي الناس عما تعودوا عليه، وربما دعا ذلك إلى مواجهة غضب العامة.

- نعم وهذا مشاهد فما قام أحد بإنكار ما عليه العامة من الخرافات إلا وغضبوا عليه وانفضوا عنه وحاربوه.

+ هذا دور العلماء، ومقتضى الميثاق الذي أخذ على من أوتي الكتاب، البيان للناس وعدم الكتمان. وهو من الجهاد في سبيل الله، فكما أن إنقاذ أبدان المسلمين من القتل والأسر في الجهاد الحسي مطلوب، فكذلك إنقاذ أديانهم وعقائدهم وعباداتهم في الجهاد العلمي. وكما أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، فكذلك إماطة الأذى المعنوي عن طريق القلوب إلى الله صدقة أعظم.

- دعنا نعدْ إلى القضايا الخمس المتداخلة. بأيتها نبدأ ليسهل علينا فهمها؟

+ سنبدأ بالتبرك، لأنه "سر" المسألة كلها، وإذا وفقت لفهمه انحل لك إشكال هذه المسائل وربما مسائل كثيرة غيرها. (ثم نختم بالبدعة لأنها ثمرتها!) لكن قبل أن نبدأ دعني أذكرك بقاعدة اتفق عليها علماء السلف كلهم.

- وما هي؟

+ الأصل في العبادات التوقيف. ومعنى التوقيف ألا نأتي بعبادة نقولها أو نمارسها أو نعتقدها إلا بدليل. ويكون لها أصل عن الرسول ﷺ أو الصحابة. وما سوى ذلك فلا يمكن أن يكون عبادة.

- وهل هذه القاعدة متفق عليها بين العلماء؟

+ نعم، وأدلتها كثيرة، لكن بعض العلماء المتأخرين يقبلونها نظريًّا لكن يتساهلون في تطبيقها عمليًّا!

- كيف ذلك؟

+ يقبلونها من حيث الأصل، فلا يحدثون عبادة جديدة، لكنهم يتساهلون في بعض الأعمال التي يتعبد بها من يعملها ويجعلها كالسنة وربما رتب عليها الأجر أو حكم بالفضيلة على ذلك العمل دون دليل. فهم لا يطبقون هذه القاعدة كما كان يطبقها السلف.

- لماذا يفشلون في تطبيقها عمليًّا؟

+ لأنهم يتساهلون في البدع الصغيرة حتى تكبر ويتعود عليها الناس، أو يخطئ بعض العلماء في تسويغها، فتجدهم يتعاظمون إنكارها بعد ذلك. وغالبًا الأمور الكبيرة تبدأ صغيرة يستقلها الناس، فلا تلبث حتى تكبر، فيصعب التعامل معها، ثم تترسخ في أذهان الناس حتى لا يستطيع أحد أن ينكرها.

- هذه قاعدة جيدة. دعنا نعدْ للتبرك، الذي قلت إنه سر هذه المسائل كلها.

+ في الأصل، كل الأشياء التي نراها مخلوقة ومتساوية في الفضل، لكن الله ميز بعض المخلوقات بأن باركها، بمعنى أنه جعلها مصدرًا حسيًّا للخير أكثر من غيرها، بصفة قدّرها الله تعالى بناء على علمه وحكمته. ونحن لا نعلم بأن أحدًا أو شيئًا مبارك في ذاته إلا بالنص من الله أو من رسوله، أو بورود فعل من الشارع يدل على تميزه عن غيره - أي بركته. لأن هذا لا سبيل لمعرفته بالعقل. فبالتالي اعتقاد بركة شخص أو شيء يحتاج إلى دليل. كما أن ورود النص ببركة شيء في أمر ما لا يعني أنه مبارك بشكل عام بل تكون مباركته مخصوصة في الشأن الذي وردت فيه.

- نعم، وقد ورد النص على أن عيسى مبارك حيثما كان، وورد النص ببركة مكة، وورد الدليل على بركة الرسول ﷺ.

+ صحيح، فقد كان الصحابة يتبركون بدعاء الرسول ﷺ وبجسمه وبعرقه. وهذا كله حق.

- أين المشكلة في هذه القضية؟

+ المشكلة تبدأ عندما نريد أن نعمم هذه البركة على ما نعتقد صلاحه من الناس أو قداسته من الأماكن.

- وأين وجه الإشكال؟

+ وجه الإشكال يكمن في أمرين: الأول، أن الحكم ببركة شيء ما حكم شرعي، فنحن لا نستطيع أن نعرف حقيقة الأشخاص والأماكن، إذ إنه ليس لنا إلا الظاهر.

- والثاني؟

+ الثاني، أن هذا الحكم بالبركة على شيء ما يجر إلى اعتقاد تأثيره، وبالتالي الاعتقاد بقدرات غير طبيعية فيه، أي قدرات غير موجودة في غيره من أمثاله. وبذلك تتحرك القلوب إليه، من الخوف والرغبة والرهبة والاعتماد ونحو ذلك. وقد تجر أيضًا إلى غير ذلك من السفر له - شد الرحال - والذبح والنذر له. وهذه عبادات لا تجوز إلا لله. كما أن هذا لم يكن من عمل الصحابة. فلم يكن الصحابة يتبركون بأحد غير رسول الله ﷺ. العامة - ويتبعهم في ذلك بعض العلماء - يريدون أن يعمموا هذا الحكم في كل من اعتقدوا صلاحه، حتى انتهى الأمر ببعضهم إلى تقديس خرافي لبعض الأشخاص، واعتقاد قداسة وبركة بعض الأماكن والأشياء. وأي قارئ للأحاديث الصحيحة ولسيرة صحابة رسول الله ﷺ يعلم يقينًا أن هذا التبرك لم يكن من عادة صحابة رسول الله ﷺ. فلو كان خيرًا أو أمرًا مشروعًا لكانوا أحرص الناس عليه.

- هذا واقع في كثير من بلاد المسلمين، ولا ينكره إلا مكابر.

+ نعم فما نخشاه ليس أمرًا افتراضيًّا، نادر الوجود، بل صار يمارسه كثير من الناس، بل صار هو الدين عند بعضهم، بحيث إن من خالفه يكون مخطئًا.

- لكن ثبت عن ابن عمر أنه كان يتتبع الأماكن التي مر بها الرسول ﷺ أو صلى فيها.

+ أولاً هذا فعل ابن عمر وحده، وخالفه بقية الصحابة. ولا يمكن أن يعرض أغلب الصحابة عن الأفضل. ثانيًا ابن عمر رضي الله عنه

كان يفعل ذلك مبالغة في التأسي بالرسول ﷺ في أعماله، وليس تبركًا بتلك الأماكن لذاتها. فلا يجوز الاستدلال بفعله على ما لم يقصده، ولا يجوز الاستدلال بفعله على ما خالفه عليه بقية الصحابة. فقد خالفه أبوه عمر بن الخطاب. وعمر هو الذي قطع شجرة الرضوان لما رأى الناس يتقصدونها.

- إذن أنت ترى أن (التبرك) هو مصدر قضية التوسل؟

+ نعم، فالتوحيد هو أن يكون قلبك معلقًا بالله بالكلية، ولا تلتفت لغيره من الأسباب إلا ما جعله الشرع سببًا، ويجب مع ذلك أن تنظر إليه على أنه مجرد سبب. وأن الفاعل الحقيقي هو الله، خالق السبب وخالق الفعل. واعتقاد أن لدى بعض الأشخاص أو في بعض الأشياء "قوة خفية" أو "قدرة ذاتية باطنة" تسبب الخير أو تدفع الضر - ليس عليها دليل من الشرع - هو نوع من الشرك.

- ما علاقة التبرك بالقضايا الأخرى

+ كل هذه القضايا نتجت عن أمرين: إما اعتقاد بركة ما لم يدل الدليل على بركته، أو تعدي المشروع في ما ثبتت بركته. فلذلك توسع الناس فاعتقدوا البركة في أشخاص وأماكن لم يرد فيها دليل، بل تساهل كثير منهم واعتقد البركة في بعض الفساق وقبورهم وقبور المجهولين. وإذا اعتقد الإنسان بركة شخص اعتقد أنه ينفع ويضر، وقاده هذا إلى دعائه والاستغاثة به من دون الله، أو اتخاذه واسطة بينه وبين الله. وهذا مماثل لفعل المشركين الذين ذمهم الله بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾. (الزمر: ٣)

- عفوًا شيخي، لعلك تفصّل لي في هذا الأمر، فأنا أعرف أن التوسل فيه ما هو مشروع. فهل لك أن تبين رأيك في موضوع التوسل لأنه يكثر الطعن فيك عند الحديث عن هذا الموضوع.

+ صاحب الهوى وصاحب البدعة دائمًا يأتي إلى أمر جائز ثم يتوسع فيه لكي يدخل أشياء غير جائزة ولا يشملها الدليل. وهذا عادة كثير من أصحاب الهوى في هذا الموضوع.

- لعلك توضح لي هذا الأمر من خلال تطبيقه على موضوع التوسل. لكن قبل ذلك ما معنى التوسل؟

+ التوسل هو الطلب من الله عن طريق وسيلة توصل إلى المقصود. فيقول السائل: (أسألك يا ألله "بجاه الولي فلان" أن تشفي مريضي).

- إذن التوسل هو دعاء الله أو سؤال مع التوسل بشيء ما؟

+ نعم، لأن دعاء غير الله مباشرة، ليس توسلاً، بل هو شرك باتفاق العلماء.

- نعود للتوسل. هل كل أنواعه ممنوعة؟

+ لا. التوسل منه ما هو مشروع ومنه ما هو ممنوع. فمن تتبع النصوص الشرعية وحال الصحابة مع رسول الله ﷺ يعلم أنهم كانوا يسلكون ثلاث طرق للتوسل. وهذا ما نسميه التوسل الشرعي.

- وما هي هذه الطرق الثلاث؟

+ الأولى: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته. فمن أدب الدعاء ومن أسباب الإجابة أن يدعو الداعي اللهَ متوسلاً إليه بأسمائه وصفاته المناسبة للدعاء، بحيث يقول يا غني أغنني، يا قوي يا عزيز انصرني. قال تعالى:

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها...). والثانية: أن يتوسل إلى الله بأعماله الصالحة، على سبيل التذلل والخضوع لا على سبيل المنّ. مثل أن يقول اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الأحد الصمد، أو أن يقول اللهم إني ما تركت هذا المحرم إلا خوفًا منك وابتغاء مرضاتك... فاغفر لي أو اشف مريضي، أو ارزقني، ونحو ذلك. ودليل ذلك حديث الثلاثة الذين آواهم الغار.... والثالثة: هي التوسل بدعاء المسلمين الأحياء، وخاصة من يرجى منه الإجابة أو يعتقد فيه الصلاح. فيطلب منهم أن يدعوا له. فهذه الصور من التوسل ثبتت بالدليل، وفعلها الصحابة.

- إذن هذه هي صور التوسل المشروعة: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، والتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، والتوسل له بدعاء الصالحين.

- نعم

- وهل يدخل في التوسل بدعاء الصالحين التوسل بهم - أي بذواتهم؟

+ هذا هو وجه الإشكال بيني وبين خصومي في هذه المسالة.

- كيف ذلك؟

+ أنا أقول إن المشروع هو التوسل بدعائهم. تأتي إلى شخص وتطلب منه أن يدعو لك، أو يدعو للمسلمين. وهذا ثبت عن الصحابة، كما في حديث الاستسقاء بالعباس، رضي الله عنه.

- نعم كنت سأسألك عنه لأني رأيت كثيرًا من خصومك يستدلون به.

+ لعلك تتذكر ما قلته لك قبل قليل إن صاحب البدعة وصاحب الهوى يأتي إلى أمر جائز فيتوسع فيه ويدخل فيه ما لا يدل عليه الدليل.

- كيف هذا؟

+ كان الصحابة إذا أجدبوا وامتنع عنهم المطر يأتون إلى النبي ﷺ ويطلبون منه أن يدعو لهم. وكانوا أيضًا يسألونه أن يدعو لهم في أمور أخرى. ولاحظ أنه لم ينقل عن أحد منهم أنه توسل إلى الله بذات النبي أو بجاهه، مع أن جاهه عند الله عظيم. لكنهم لم يفعلوه مع الحاجة له، فقد كان يصيبهم الجوع الشديد والجدب وبعضهم أسره الكفار وعذبوهم، لكن لم يكن أحد منهم يدعو الله بجاه النبي أو يتوسل بذاته. فهم إما أن يدعوا الله مباشرة أو يطلبوا من النبي ﷺ الدعاء لهم.

- وماذا عن حديث العباس رضي الله عنه؟

+ سأتحدث عنه، لكن فهمه لا يمكن قبل توضيح سياق الاستدلال به. لما توفي الرسول ﷺ لم ينقل عن الصحابة ولا التابعين أنهم توسلوا لله بذاته، أي دعوا الله وقالوا: نسألك بنبيك. وهذه كتب السنة وأقوال العلماء من السلف بين أيدينا، نقلتْ كلام الصحابة ومن تبعهم من السلف، فهل فيها توسل بالنبي ﷺ بعد موته؟ وهل يعقل أن يكون التوسل بالنبي ﷺ بعد موته مشروعًا وذا فائدة ولا ينقل لنا ولا مرة واحدة عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك؟!

- نعود لحديث العباس، لأن كثيرًا من دعاة التوسل يستدلون به.

+ لما أجدبوا وتوقف المطر وأراد الصحابة الاستغاثة بالله ليُمطروا، قال عمر بن الخطاب (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك... وإننا نتوسل إليك بعم نبيك...، قم يا عباس فادعُ لنا...). فهذا يدل على أن التوسل كان بدعاء العباس، وليس بذاته.

- وضح لي هذه.

+ لو كانت الاستغاثة بذات العباس لما طلب منه الدعاء، بل لدعا عمر وتوسل به في دعائه. ولو كان التوسل بالذات لكان يتوسل بذات النبي ﷺ، فهي قطعًا أفضل من ذات العباس. فتركُهم النبي ﷺ في التوسل وطلبهم من العباس الدعاء دليل على أن المقصود التوسل بالدعاء. والتوسل بالدعاء حق، فليس فيه دليل على التوسل بالذات. فالطلب من الرجل الحاضر الذي يرجى صلاحه الدعاء أمر جائز.

- عرفت أن هذا هو التوسل المشروع، فما هو التوسل غير المشروع؟

+ التوسل غير المشروع هو ما أحدثه الناس بعد القرون المفضلة، وهو أن يدعو الإنسان ويقول في دعائه (اللهم إني أتوسل إليك بنبيك، أو بفلان أو بجاه نبيك أو جاه فلان) فهذا لم يكن من عمل السلف.

- إذن أنت ترى أن هذا بدعة؟

+ نعم، وقد جرّ العمل به والتساهل فيه إلى أن صار بعض الناس يتوسل بكل من يظن به الصلاح. والصلاح أمر باطن لا يعلم حقيقته إلا الله. ثم تطور الأمر حتى صار بعض الناس يدعو غير الله مباشرة، ممن يرى فيه الصلاح، ويظن هذا توسلاً!

- كيف هذا؟

+ لما استقر عند العامة والجهال ومن وافقهم من المنتسبين للعمل جواز الـ "توسل بالذوات" توسعوا فيه فصاروا يدعون من كانوا يتوسلون به. وفي بداية الأمر كانوا يدعونه ليتوسط لهم، ثم صاروا يدعونه مباشرة. فقد انتهى التساهل في التوسل إلي التوسع في دعاء غير الله، وتقديس البشر وتقديس قبورهم وتطور الأمر إلى ما يشبه الوثنية، فصارت مزارات

وعليها قبب ولها سدنة ولها طقوس ويحج لها الناس وينذرون ويذبحون ويطوفون بها ويتمسحون يرجون بركتها، ويتبركون بتربتها وبالصلاة عندها وإليها. كل ذلك بسبب التساهل في التبرك والتوسع في التوسل. "ومعلوم أن الشرك بالله وعبادة ما سواه أعظم الذنوب، والدعاء إليه [أي هذا الشرك] والأمر به من أعظم الخطايا، ومعاداة من ينهى عنه ويأمر بالتوحيد وطاعة الرسول ﷺ أعظم من معاداة من هو دونه. ولولا بعد عهد الناس بأول الإسلام وحال المهاجرين والأنصار، ونقص العلم وظهور الجهل واشتباه الأمر على كثير من الناس، لكان هؤلاء المشركون والآمرون بالشرك مما يظهر كفرهم وضلالهم للخاصة والعامة ..."

- من تصويرك للموضوع يبدو لي الأمر سهلاً وواضحًا، فلماذا يطول الخلاف فيه ويتعقد بين العلماء على مر السنين؟

+ لو تركت الشريعة على طبيعتها الأولى، ولم تدخلها البدع لكانت سمحة واضحة المعالم وبينة الدلائل. المشكلة تأتي عندما يريد أصحاب الأهواء والبدع أن يسوغوا بدعهم، فيبدؤون الاستدلال بالأحاديث الضعيفة وبالتعسف في الاستدلال لتوافق هواهم، وبترك الأمور الواضحة المتفق عليها بين السلف واختيار أقوال للمتأخرين للتكلف في نصرتها. فأنت تجدهم في مثل هذه القضية يستدلون بأحاديث ضعيفة أو موضوعة، ويستدلون بحكايات لو صحت لم تكن دليلاً. ولو صحت لكان السلف المتقدمون يأخذون بها ويشتهر ذلك عنهم.

- صحيح، اتضح لي أن كل البدع الكلامية والصوفية كانت بسبب ترك ما كان عليه السلف الصالح، الصحابة والتابعون من بعدهم.

+ نعم هذا هو الباب الذي إذا فتح، لم يمكن رد البدع.

شد الرحل

- أحس أننا ابتعدنا كثيرًا عن موضوعنا وهو زيارة القبور، فهل لك أن تعيدنا إليه، وتبين لي الخلاف الذي بينك وبين خصومك فيه؟

+ بالتأكيد، فما مضى كان توطئة واستطرادًا، لأصل سؤالك عن زيارة القبور.

- هل أنت ترى مشروعية زيارة القبور؟

+ بالتأكيد، فهذه فيها نصوص صريحة بالأمر بزيارة القبور الزيارة الشرعية.

- وماذا تقصد بالزيارة الشرعية؟

+ أعني الزيارة التي يكون الغرض منها الدعاء للميت وتذكر الموت والآخرة، كما وردت بذلك الأحاديث.

- إذن ما هو الممنوع عندك؟

+ الذي أراه ممنوعًا زيارة القبور طلبًا لبركتها، أو لدعاء أصحابها، أو لطلب فضيلة الدعاء عندها. فكل هذه الثلاثة لم يرد فيها دليل على شرعيتها، ولم يكن السلف يعملونها. فالقبور ليس فيها بركة بذاتها، ولو كان أصحابها صالحين، ولا يجوز دعاء أصحابها لأنهم أموات ولا يستطيعون عمل شيء لأنفسهم فضلاً عن غيرهم. وليس للدعاء عندها أي فضيلة، بل قد يجر ذلك لدعاء أصحابها أو اعتقاد البركة فيها وهذا

كله ممنوع. و "أصل الشرك بالله اتخاذ القبور مساجد، كما قال طائفة من السلف..."

- إذن هذه الصور التي ترى أنها لا تجوز في زيارة القبور؟

+ نعم، لكن هناك أيضًا مسألة ثار فيها خلاف كبير بيني وبين خصومي إلى اليوم.

- ما هي؟

+ مسألة شد الرحل، أو السفر لزيارة القبور.

- نعم قرأت كثيرًا عن هذه المسألة، وألف فيها كثيرًا، فهل لك أن توضحها؟

+ أنا أقول حتى الزيارة الشرعية، لا يجوز أن يُنشأ لها سفر. فالرسول ﷺ نهى عن شد الرحل إلا إلى ثلاثة مساجد، ومعنى هذا أنه لا يسافر المسلم لبقعة من الأرض تقربًا وتعبدًا إلا إلى هذه الثلاثة المساجد. فيجوز أن يزور المسلم ما شاء من القبور - بالصفة الشرعية - لكن لا يسافر - أي يشد الرحل - لها.

- حتى قبر الرسول ﷺ؟

+ حتى قبره ﷺ. فشد الرحل يكون لمسجده فقط، فمن وصل مسجده وأراد زيارة قبره فله ذلك، كما تزار القبور.

- يعني ليس هناك أفضلية لزيارة قبر الرسول ﷺ؟

+ لم يأت أي حديث صحيح يحث على زيارة قبر الرسول ﷺ، ولم يكن أحد من السلف الصحابة والتابعين، يفعل ذلك. وهم أكثر الناس حبًا للرسول ﷺ، وأحرص الناس على الخير، وأدراهم بالسنة. "وأول

من وضع هذه الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور هم أهل البدع من الروافض ونحوهم، الذين يعطلون المساجد ويعظمون المشاهد..."

- لكن خالفك كثير من العلماء في ذلك؟

+ أولاً لم يخالف في ذلك إمام من المتقدمين. خالف في ذلك بعض المتأخرين ممن لا يعرف أحوال الصحابة والتابعين، أو نشأ على أشياء واستحسنها ولا يريد أن يخالفها. لكن المخالفين لي ليس لديهم أي حديث أو أثر صحيح يعتمدون عليه. فكل الأحاديث التي يعتمدون عليها ضعيفة أو موضوعة. "وليس عن النبي ﷺ حديث ثابت في زيارة قبره خصوصًا، حتى يستثنى من العموم، بل جاء عنه في قبره نهي خاص، كقوله: (لا تتخذوا قبري عيدًا)..."[1] "وأما السفر لمجرد زيارة القبور فما رأيت أحدًا من علماء المسلمين قال إنه مستحب، إنما تنازعوا: هل هو مباح أو منهي عنه".

- ولذلك انتصر لك أحد تلاميذك، وهو ابن عبد الهادي، وفصل القول في الرد على أدلتهم في كتابه (الصارم المُنكي) لكنه توفي قبل أن يتمه، ثم أتمه أحد علماء جدة المتأخرين. رحمهما الله.

(١) رسالة في شد الرحل... ملحقة بالأخنائية.

البدعة

حسنًا، أيها الشيخ. تكلمنا عن ثلاث من القضايا التي قلت إنها مترابطة، دعنا نتحدث عن الرابعة: البدعة. فكثير من المعاصرين يتهمك وأتباعك بأنكم تتشددون في البدعة.

+ التشدد والتساهل أمر نسبي. فما قد يراه فلانٌ تشددًا، قد يراه غيره تساهلاً. بل من يتهمنا بالتشدد، لو تتبعت بعض أحواله لرأيته يتشدد في أمور ليس له عليها دليل إلا تقليد مذهبه.

- هل يعني هذا أنه لا يوجد ضابط؟

+ لا، يوجد ضابط، وهو الدليل. فما كان التشدد فيه مبنيًا على اتباع الدليل، ولا يخرج عن كلام العلماء، فهو ليس بتشدد مذموم. التشدد هو الأخذ بالأشد دون دليل صحيح.

- حتى تتضح الأمور أكثر دعنا نعدْ إلى البدعة.

+ البدعة مقابلة للسنة، فكل أمر محدث لم يشرعه رسول الله ﷺ، ولم يكن من عمل صحابته الكرام، ويقصد به الفاعل التقرب لله فهو بدعة. والرسول ﷺ يقول: (إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.) فهذا لفظ عام. ولم يعرف عن الصحابة أنهم كانوا يفعلون شيئًا يتقربون به إلى الله أو يضاهئون به الأمور المشروعة بمجرد استحسانهم له. بل ثبت عنهم إنكار ذلك والتشدد فيه.

- وهل هذا ينطبق على كل المحدثات؟

+ بالتأكيد، لا. فالمقصود هو المحدثات في الدين. ولذلك قال الرسول ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) أي مردود. فأنا أرى أن كل ما أحدث في الدين أو ما كان فيه مماثلة لطريقة مشروعة، فهو بدعة.

- وهل تتساوى البدع؟

+ من حيث المبدأ نعم، فكل بدعة ضلالة. لكن أفراد البدع تتفاوت، فمنها البدع المكفرة، ومنها ما هو غير مكفر. وهذه يعرفها أهل العلم والتحقيق.

- لكن هناك من يستدل بحديث عمر (نعمت البدعة هذه)، ويعني صلاة التراويح، لما أحياها بعد موت النبي ﷺ.

+ أنت قلت إنه أحيا هذه السنة. معنى ذلك أنه لم يأتِ بشيء جديد. فالتراويح صلاها رسول الله يومًا أو يومين جماعة، ثم لما كثر الناس خلفه تركها - جماعة - خشية أن تفرض عليهم. فلما توفي رسول الله ﷺ وفي خلافة عمر أحياها، لأنه زال ما كان يخشاه رسول الله ﷺ من افتراضها. كما أن إحياءها من سنة الخلفاء الراشدين التي وافقهم عليها بقية الصحابة. والرسول ﷺ أمرنا بالتزام سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده. فهي أولاً فعلها الرسول ﷺ، ثم هي من سنة الخلفاء الراشدين، ثم اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم.

- لماذا أقر عمر تسميته (بدعة).

+ العلماء يرون أن ذلك من باب التسمية اللغوية، لا غير. لكن لا يجوز أن يستدل بهذا على إنشاء (بدع) جديدة ليس لها أصل، بل قد يكون فيها أيضًا التشبّه بالكفار.

وقلت له أيضًا ذكرت في النفي التمثيل، ولم أذكر التشبيه لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث قال: (ليس كمثله شيء) وقال: (هل تعلم له سميًا) وكان أحب إلي من لفظ ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ وإن كان قد يعنى بنفيه معنى صحيح كما قد يعنى به معنى فاسد.

ولما ذكرت أنهم لا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، جعل بعض الحاضرين يتمعض من ذلك ...

- لماذا؟

+ "... لاستشعاره ما في ذلك من الرد الظاهر عليه. ولكن لم يتوجه له ما يقوله وأراد أن يدور بالأسئلة التي أعلمها فلم يتمكن لعلمه بالجواب.

- وهل انتهى الأمر عند ذلك؟

+ لا، بل "أخذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ويطنبون في هذا ويعرضون لما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك، فقلت: قولي من غير تكييف ولا تمثيل ينفي كل باطل وإنما اخترت هذين الاسمين لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف كما قال ربيعة ومالك وابن عيينة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) فاتفق هؤلاء السلف على أن التكييف غير معلوم لنا فنفيت ذلك اتباعًا لسلف الأمة. وهو أيضًا منفي بالنص فإن تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف وحقيقة صفاته وهذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله كما قد قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل والمعنى والفرق بين علمنا بمعنى الكلام وبين علمنا بتأويله.

+ لا، فقد حرصوا على الاعتراض، "فكان مما اعترض علي بعضهم لما ذكر في أولها ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فقال ما المراد بالتحريف والتعطيل؟ ومقصوده أن هذا ينفي التأويل الذي أثبته أهل التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره إما وجوبًا وإما جوازًا.

فقلت تحريف الكلم عن مواضعه كما ذمه الله تعالى في كتابه وهو إزالة اللفظ عما دل عليه من المعنى مثل تأويل بعض الجهمية لقوله تعالى: (وكلم الله موسى تكليمًا)، أي: جرّحه بأظافير الحكمة تجريحًا! ومثل تأويلات القرامطة والباطنية وغيرهم من الجهمية والرافضة والقدرية وغيرهم فسكت وفي نفسه ما فيها.

- لماذا عدلت عن ذكر كلمة "تأويل"؟

+ "ذكرت في غير هذا المجلس أني عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة فنفيت ما ذمه الله من التحريف ولم أذكر فيها لفظ التأويل بنفي ولا إثبات لأنه لفظ له عدة معان كما بينته في موضعه من القواعد.

فإن معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير معنى لفظ التأويل في اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه وغير معنى لفظ التأويل في اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف لأن من المعاني التي قد تسمى تأويلاً ما هو صحيح منقول عن بعض السلف فلم أنف ما تقوم الحجة على صحته فإذا ما قامت الحجة على صحته وهو منقول عن السلف فليس من التحريف.

- ثم ماذا حصل؟

+ "ثم أرسلت من أحضرها ومعها كراريس بخطي من المنزل فحضرت العقيدة الواسطية، وقلت لهم هذه كان سبب كتابتها أنه قدم علي من أرض واسط بعض قضاة نواحيها شيخ يقال له رضي الدين الواسطي من أصحاب الشافعي قدم علينا حاجًّا وكان من أهل الخير والدين وشكا ما الناس فيه بتلك البلاد وفي دولة التتر من غلبة الجهل والظلم ودروس الدين والعلم وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته فاستعفيت من ذلك وقلت قد كتب الناس عقائد متعددة فخذ بعض عقائد أئمة السنة فألحّ في السؤال وقال ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت فكتبت له هذه العقيدة وأنا قاعد بعد العصر وقد انتشرت بها نسخ كثيرة في مصر والعراق وغيرهما.

فأشار الأمير بأن لا أقرأها أنا لرفع الريبة وأعطاها لكاتبه الشيخ كمال الدين فقرأها على الحاضرين حرفًا حرفًا والجماعة الحاضرون يسمعونها ويورد المورد منهم ما شاء ويعارض فيما شاء والأمير أيضًا يسأل عن مواضع فيها وقد علم الناس ما كان في نفوس طائفة من الحاضرين من الخلاف والهوى ما قد علم الناس بعضه وبعضه بسبب الاعتقاد وبعضه بغير ذلك.

ولا يمكن ذكر ما جرى من الكلام والمناظرات في هذه المجالس فإنه كثير لا ينضبط لكن أكتب ملخص ما حضرني من ذلك مع بعد العهد بذلك ومع أنه كان يجري رفع أصوات ولغط لا ينضبط.

- وهل سلم لك الخصوم بما ذكرته في العقيدة؟

- ثم أرسلتَ في طلب العقيدة الواسطية؟

+ نعم، وقلت قبل حضورها كلامًا قد بعُد عهدي به، وغضبت غضبًا شديدًا، لكني أذكر أني قلت أنا أعلم أن أقوامًا كذبوا علي وقالوا للسلطان أشياء وتكلمت بكلام احتجت إليه، مثل أن قلت من قام بالإسلام أوقات الحاجة غيري ومن الذي أوضح دلائله وبينه وجاهد أعداءه وأقامه لما مال حين تخلى عنه كل أحد، ولا أحد ينطق بحجته ولا أحد يجاهد عنه وقمت مظهرًا لحجته مجاهدًا عنه مرغبًا فيه.

فإذا كان هؤلاء يطمعون في الكلام فيّ فكيف يصنعون بغيري؟ ولو أن يهوديًا طلب من السلطان الإنصاف لوجب عليه أن ينصفه وأنا قد أعفو عن حقي وقد لا أعفو بل قد أطلب الإنصاف منه وأن يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليوقّفوا على افترائهم. وقلت كلامًا أطول من هذا الجنس لكن بعد عهدي به. فأشار الأمير إلى كاتب الدرج محيي الدين بأن يكتب ذلك.

وقلت أيضًا: كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه، ... وقلت أيضًا بعد حضورها وقراءتها: ما ذكرت فيها فصلاً إلا وفيه مخالف من المنتسبين إلى القبلة وكل جملة فيها خلاف لطائفة من الطوائف...".

- اسمح لي أيها الشيخ، ألا ترى أن في ذلك تزكية للنفس وتفاخرًا؟

+ بلى، وأسأل الله المغفرة. لكن لا بد أن تنظر إلى سياق الكلام، فأنا أصف ما حصل، على أي حال. فأنا كنت في مناظرة ودفاع عما أراه حقًّا، وأمام السلطان، فكنت في مقام الدفاع عن النفس وإظهار قوتي وبيان ضعف حجة الآخرين.

+ قال الأمير: نريد أن تكتب لنا عقيدتك، فقلت اكتبوا. فأمر الشيخ كمال الدين أن يكتب فكتبت له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات والقدر ومسائل الإيمان والوعيد والإمامة والتفضيل، وهو أن اعتقاد أهل السنة والجماعة الإيمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود. والإيمان بأن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه أمر بالطاعة وأحبها ورضيها ونهى عن المعصية وكرهها والعبد فاعل حقيقة والله خالق فعله وأن الإيمان والدين قول وعمل يزيد وينقص وأن لا نكفر أحدًا من أهل القبلة بالذنوب ولا نخلد في النار من أهل الإيمان أحدًا، وأن الخلفاء بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي وأن مرتبتهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة ومن قدم عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار. وذكرت هذا أو نحوه، فإني الآن قد بعُد عهدي ولم أحفظ لفظ ما أمليته لكنه كتب إذ ذاك.

ثم قلت للأمير والحاضرين أنا أعلم أن أقوامًا يكذبون علي كما قد كذبوا عليّ غير مرة وإن أمليت الاعتقاد من حفظي فربما يقولون كتم بعضه أو داهن وداری، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل مجيء التتر إلى الشام.

- وهل كان هناك من يكذب عليك فعلاً؟

+ نعم وكثير.. وقد زوروا عليّ فتاوى ورسائل.. لكن الله يكشف أمرهم..

+ كان ذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة من الهجرة.

- ثم ماذا حدث؟

+ قال لي: هذا المجلس عقد لك، فقد ورد مرسوم السلطان بأن أسألك عن اعتقادك وعما كتبت به إلى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس إلى الاعتقاد. وأظنه قال وأن أجمع القضاة والفقهاء وتتباحثوا في ذلك.

- وماذا كان ردك؟

+ "قلت: أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عمن هو أكبر منّي، بل يؤخذ عن الله ورسوله ﷺ وما أجمع عليه سلف الأمة فما كان في القرآن وجب اعتقاده وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم".

- وهل كتبت إلى أحد تدعو إلى اعتقاد معين؟

+ أما الكتب فما كتبت إلى أحد كتابًا ابتداء أدعوه به إلى شيء من ذلك، ولكني كتبت أجوبة، أجبت بها من يسألني من أهل الديار المصرية وغيرهم، وكان يَرِد عليّ من مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد وغيره فأجيبه بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة. وكان قد بلغني أنه زور علي كتاب إلى الأمير ركن الدين الجاشنكير أستاذ دار السلطان يتضمن ذكر عقيدة محرفة، ولم أعلم بحقيقته لكن علمت أنه مكذوب.

- وماذا كان موقف الأمير؟

مناظرة الواسطية

لابن تيمية مناظرات كثيرة من علماء وفرق عصره. لكن هناك مناظرة تشدني كلما قرأتها. فهي تصور جانبًا من المعاناة التي كان يعاني منها ابن تيمية من بعض علماء عصره. توجهت إلى المجلد الثالث من مجموع الفتاوى، حيث توجد مناظرة الواسطية. فتحت الكتاب فظهر لي خيال ابن تيمية.

- أنا متشوق لسماع خبر المناظرة منك، فإني لا أكاد أمل من قراءتها، لما فيها من العلم وقوة الاستدلال وحضور الحجة.

- ذلك من فضل الله، وهذا لا أراه إلا مصداق قول الله تعالى: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم). فأنا أرجو أنني ما قمت بهذا الأمر إلا نصرة لله ولرسوله ﷺ.

- ما قصتها؟

+ "سعى بي قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد، فورد كتاب السلطان من الديار المصرية إلى نائبه أمير البلاد في دمشق، فعُقدت ثلاثة مجالس للمناظرة في أمر الاعتقاد. فأمر الأمير بجمع قضاة المذاهب الأربعة وغيرهم من نوابهم والمفتين والمشايخ ممن له حرمة وبه اعتداد وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد".

- متى كان هذا؟

قالها، إلا إذا حصل فيه الشرط الذي يستحق به التغليظ عليه والتكفير له...
فهذا أصل عظيم فتدبره فإنه نافع، وهو أن ينظر في شيئين في المقالة: هل هي حق أم باطل؟ أم تقبل التقسيم فتكون حقًّا باعتبار وباطلاً باعتبار؟ وهو كثير غالب...".

- إذن من قواعد أهل السنة المشهورة أنهم لا يكفرون بذنب؟

+ نعم العلماء متفقون على هذا، وقصدهم الذنوب المعروفة وهي الكبائر التي كفَّرَ بها الخوارج مثل شرب الخمر والزنى والسرقة وقتل النفس، ونحوها. وليس المقصود أنهم لا يكفرون بأي ذنب. فمن أنكر الصلاة أو اعتقد حلَّ الخمر - مثلاً - فالعلماء متفقون على تكفيره، ما لم يكن جاهلاً لم يبلغه الحكم. فـ "... من شأن أهل البدع أنهم يبتدعون أقوالاً ويجعلونها واجبة في الدين بل يجعلونها من الدين الذي لا بد منه، ويكفرون من خالفهم فيها ويستحلون دمه، كفعل الخوارج والجهمية والرافضة والمعتزلة وغيرهم، وأهل السنة لا يبتدعون قولاً ولا يكفرون من اجتهد فأخطأ، وإن كان مخالفًا لهم مكفرًا لهم مستحلاً لدمائهم، كما لم يكفر الصحابة الخوارج مع تكفيرهم [أي الخوارج] لعثمان وعلي ومن والاهما واستحلالهم لدماء المسلمين المخالفين لهم." (منهاج السنة ٥/ ٩٣) ويشتد الأمر عندما يصل التكفير إلى علماء المسلمين، "... تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، وإنما أصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطؤوا فيه من الدين..." (الفتاوى ٣٥/ ١٠٠)

- هل معنى هذا أنه ليس لهم دليل فيما ذهبوا له من تكفير؟

+ اشتبه عليهم الأمر بسبب جهلهم واتباعهم للهوى. فلو سلكوا سبيل أهل العلم في جمع الأدلة والتوفيق بينها، أو في سؤال أهل العلم والرجوع لهم، لسلموا. وقد يستدلون بكلمات لبعض العلماء قيلت في حالات خاصة، فيأخذونها على أنها قواعد عامة. "... فإذا رأيت إمامًا غلّظ على قائل مقالته أو كفره فيها فلا يعتبر هذا حكمًا عامًّا في كل من

بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين أن الذي يرضى له ويغضب له أنه السنة وهو الحق وهو الدين. فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء، ليعظَّم هو ويثنى عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعًا أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهدًا في سبيل الله..." منهاج السنة ٥/ ٢٥٦

فالتكفير حكم شرعي يطبق على من يستحقه. المحذور والخطير هو أن يتم التكفير بما ليس مكفرًا أو أن يحكم بالكفر من ليس بعالم، أو أن يطبق الحكم على من لا يستحقه. وهذا ما يقع فيه المتطرفون. وهذا ما يقع فيه الخوارج قديمًا وحديثًا. فليس كل حكم بالكفر يُعد تطرفًا. وهذا ما قصدته بالكلام المجمل. و "...كما قيل، أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء" (الفتاوى ١٩/ ١٤٠)

- قلت في إجابتك السابقة (طريقة الخوارج في التكفير) فما هي طريقة الخوارج في التكفير؟

+ طريقتهم أنهم يكفرون بما ليس بمكفٍّر - وهو الذنب الذي لا يخرج من الإسلام، أو يكون كفرًا أصغر، ويجعلونه أكبرَ -، ثم يستحلون دم من كفروه، ثم يكفرون من لم يكفر من كفروه! وهذا عندي ضلال مبين، وكتبي مملوءة بنقد هذه الطريقة وبيان مخالفتها للسنة. "... فأصل الخوارج أنهم يكفرون بالذنب، ويعتقدون ذنبًا ما ليس بذنب، ويتبعون الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب - وإن كانت متواترة - ويكفرون من خالفهم ويستحلون منه لارتداده عندهم ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي..." (٣/ ٣٥٥)

+ ألم أقل أحذرك من الكلام المجمل؟ قال ذلك وهو يحدق في وجهي.

- وما المجمل هنا؟

- التكفير حكم شرعي. وكل كتب الفقه - من جميع المذاهب - تحوي فصولاً في أحكام المرتدّ، تبين فيها الأشياء التي من فعلها يصبح كافرًا، بشروط يعرفها العلماء.

وكتب المذاهب السنية تجعل أحكامًا للردة (التكفير) وتضع أبوابًا لها في كتب الفقه، بل المعروف والمشهور عن الحنفية تشددهم في ذلك .. وأما أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة فهم أيضًا يتشددون في التكفير بالقضايا النظرية العلمية، مثل تكفيرهم من لم ينظر ويستدل على وجود الله ... ولا يخفى عليكم أن من الأشاعرة والصوفية من كفرني وكفر كثيرًا من أتباعي ..

أمّا صاحب الكبيرة فلا خلاف بين الإباضية على أنّ صاحب الكبيرة كافر النعمة، إذا خرج من الدنيا غير مقلع عن الكبيرة، وغير تائبٍ منها فهو كافر مخلد في النار (عن طعيمة - الإباضية).

والشيعة يكفرون كل من لم يعتقد بإمامة علي - رضي الله عنه - والأئمة من ذريته من بعده، أي يكفرون كل أهل السنة.

فربط التكفير باسمي أو بأتباعي، إما أنه جهل بواقع الفرق وأقوالها، أو أنه هوى ونقص في الأمانة العلمية. " وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه

+ نعم، سأوضحه لأنه ربما يشكل على بعض الناس. يطلق العلماء حكم التكفير على من فعل كذا وكذا، فهم يقولون ذلك على سبيل الحكم العام، لكن إذا فعل أحد هذا الفعل الذي يرونه كفرًا، فإن حكمهم يقع على هذه الحادثة بعينها، فلذلك يدرسونها كحالة خاصة. ولا يطبقون عليها الحكم العام مباشرة.

- لماذا؟

+ لأن الإنسان قد يفعل المكفِّر جاهلاً، فهو لا يعرف أن من عمله يكفر، أو يكون لديه شبهة قوية لم تمكنه من معرفة أن هذا العمل مكفر. أو يفعله وهو لم يعلم أنه فعله على الصفة المكفرة. مثل من يسجد لله، ولم يعلم أنه يسجد وأمامه صنم، مثلاً. أو يفعل المكفر مكرهًا، ونحو ذلك. فالحكم العام مطلق، لكن لكل حادثة ولكل شخص معين حكم معين. وهذا أمر متفق عليه بين أتباعي، فلا أدري كيف بعد هذا ينسب إليّ من يقول بالتكفير على طريقة الخوارج.

- إذن أنت تفرق بين التكفير العام وتكفير المعيّن؟

+ نعم، بل لعلي من أكثر من وجّه كلام العلماء السابقين والأئمة في إطلاقهم عبارات التكفير، حيث بينت أن هذه الإطلاقات تندرج في نصوص الوعيد التي تؤخذ في الجانب النظري على عمومها لكن عند التطبيق على معين لا بد من أمرين: انتفاء موانع التكفير مثل الجهل والإكراه أو عدم القصد، والبيان وإقامة الحجة.

- فعلاً لا أكاد أجد أحدًا يتكلم عن هذين الموضوعين كما تتكلم عنهما. لكن أيعني هذا أنك لا ترى التكفير؟

(باب الردة) أو (حكم المرتد) في كتب الفقه، فيظنون - لعدم اطلاعهم - أني أنفرد بالتكفير عن العلماء.

- هل أفهم من هذا أنك لا توافق على ما يقوله أولئك التكفيريون المتطرفون؟

+ بالتأكيد، فكتبي، وكتب من تأثر بي من العلماء على مر العصور مليئة بالتحذير من الصفات التي ذكرتَها عند حديثك عن المتطرفين المعاصرين. وأنا من أكثر العلماء نقدًا لطريقة الخوارج وتحذيرًا منها.

- هل لك أن توضح أكثر، فالكلام كثير هذه الأيام عن هذه القضية.

+ أنا من أكثر الناس تحذيرًا من التكفير، ومن أكثر الناس حثًّا على جماعة المسلمين ومن أكثر الناس دعوة للعذر بالخطأ والجهل، وممن يقررون طاعة ولاة الأمر وتحريم الخروج عليهم، ولو كانوا ظلمة. وسيرتي شاهدة على ذلك. بل قررت في مواضع من كتبي أنه لم يعرف في تأريخ الإسلام قط أن خروجًا على الحاكم أثمر إصلاحًا. فأنا من أكثر الناس تحذيرًا من التكفير، وإني "دائمًا - ومن جالسني يعلم ذلك مني - أني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير أو تفسيق ومعصية، إلا إذا قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى وعاصيًا أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية والقولية والمسائل العملية... وكنت أبين لهم أن ما نقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حق، ولكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين...".

- هل يمكن أن توضح لي معنى الإطلاق والتعيين؟

نفسه يود أن يكون الحق موافقًا له. ولذلك لا يمكن أن تصيب الحق حتى تدرب نفسك على أن تنقاد للحق ممن جاءك. وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ. لكن قل لي ما هو السؤال؟

- يوجد لدينا جماعات تكفيرية تكفر المسلمين وولاة أمورهم وتقتل من لا يوافقها، ويرون أنهم هم وحدهم جماعة المسلمين، وينصبون لهم إمامًا في بقعة من الأرض ويدعون الناس لمبايعته. وهناك من يقول إن فكرهم هذا مأخوذ من فكرك وآرائك.

طرحت هذا السؤال وكنت أتوقع أن الشيخ سيغضب، لكن تفاجأت أنه استمع لي بهدوء حتى انتهيت، ثم نظر إليّ وعلى وجهه شيء من الحزن، وقال:

+ مما لاحظته على كثير من خصومي، حتى الذين جاؤوا بعد وفاتي، أنهم لا يتحرون الدقة فيما ينقل عني من تهم. فغالب خصومي يتساهل كثيرًا في قبول كل ما ينسب لي إذا كان يصب في مصلحة خصومته لي ويساعد في التنفير عني. وكثير من أدلة خصومي على ما يخالفونني فيه لا يخرج عن ثلاثة أمور:

نقل مكذوب قبلوه مع علمهم أحيانًا أنه كذب

كلام منتزع من سياقه، أو كلام مجمل ويوجد لي كلام آخر صريح يبينه ويوضح قصدي منه

كلام لم أنفرد به بل هو غالبًا اجتهاد سبقني له علماء معتبرون.

وأؤكد لك أني لم أنفرد في التكفير بقول لا يوافقني عليه العلماء. لكن المشكلة أن كثيرًا ممن يدعون ذلك لا يقرؤون ما يكتبه العلماء في

التكفير

أفَقتُ هذا الصباح على خبر مرعب، تناقلته وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي عن حرق أحد الطيارين الأسرى لدى فرقة تكفيرية تتبنى العنف، وتزعم أنه جهاد. وتتردد في هذه الأيام كتابات في بعض وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي عن ارتباط الفرق التكفيرية المعاصرة بابن تيمية. كنت محرجًا أن أسأل الشيخ عن علاقته بهذا الفكر، لكني رأيتها فرصة مناسبة لذلك.

دخلت المكتبة، وقصدت الفتاوى، وفي طريقي لها، رأيت كتاب الدرر السنية، ولفت انتباهي حيث كان مكانه فوق الفتاوى مباشرة، وخطر في بالي أيضًا ما يقال عن هذا الكتاب وعلاقته بالتكفير والتطرف. أخذت كتاب الفتاوى وفتحته فتبدت لي صورة ابن تيمية، ... فقال لي:

- يبدو أن لديك سؤالاً مهمًا، فملامح وجهك تدل على أنك متلهف للسؤال؟

- نعم، وهو سؤال محرج، وترددت كثيرًا في طرحه عليك. فأولاً أخشى أن تغضب علي، وثانيًا أخشى أن تكون إجابتك غير ما أهواه وأريده!

فنظر إليّ بتعجب، وقال:

+ لا ينبغي أن يغضب أحد من سؤال مسترشد. وأما خشيتك أن تكون إجابتي بغير ما تهوى، فهذا أمر طبيعي. فكل من هوي شيئًا ورغبته

- مثل ماذا؟

+ مثل إحياء مولد الرسول ﷺ - الذي لم يُحدث إلا بعد القرن الثالث -. أو بعض الصلوات المبتدعة. وأعظم البدع بدع البناء على القبور وتعظيمها والسفر إليها والطواف بها.

وغالبًا لا يحيي الناس بدعة، إلا ويميتون مقابلها سنة أو أكثر. والشريعة بُلّغت لنا كاملة، وفيها الخير كله، ومن ظن أنه يمكن لأحد أن يأتي بشيء من العبادات أو القرَب زيادة على ما شرعه رسول الله ﷺ، فهو على خطر عظيم.

- لماذا؟

+ لأن في هذه أولاً تشريعًا لدين لم يأذن به الله، والله يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ (الشورى ٢١). ثانيًا هو يتضمن اتهامًا للرسول ﷺ بأنه قصر في تبليغ الدين أو أن الصحابة غفلوا عن باب من أبواب الخير كان يمكن أن يفعلوه، ولم يفعلوا. فالصحابة أشد حبًا لرسول الله منا وأحرص على الخير، فما الذي منعهم من الاحتفال بمولد الرسول ﷺ، ومنعهم من البناء على القبور والسفر لها؟ لا شك أنه اعتقادهم أن ذلك كله ليس قربة، بل محرم في دين الله.

- صحيح، وبفتح باب البدع كادت معالم الدين تنطمس، ولم تعد تُعرف السنة، بل صار من يطبق السنة غريبًا بين الناس.

وكذلك التمثيل منفي بالنص والإجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكييف إذ كُنه الباري غير معلوم للبشر. وذكرت في ضمن ذلك كلام الخطابي، الذي نقل أنه مذهب السلف، وهو إجراء آيات الصفات وأحاديث الصفات على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها إذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، يحتذى فيه حذوه ويتبع فيه مثاله فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف.

فقال أحد كبار المخالفين: فحينئذ يجوز أن يقال: (هو جسم لا كالأجسام)؟ فقلت له أنا وبعض الفضلاء الحاضرين: إنما قيل إنه يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ، وليس في الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا السؤال.

وأخذ بعض القضاة الحاضرين والمعروفين بالديانة يريد إظهار أنه ينفي عنا ما يقول وينسبه البعض إلينا فجعل يزيد في المبالغة في نفي التشبيه والتجسيم، فقلت ذكرت فيها في غير موضع من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل وقلت في صدرها ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

ثم قلت وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها كذلك إلى أن قلت: إلى أمثال هذه الأحاديث الصحاح التي يخبر فيها رسول الله ﷺ بما يخبر به، فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل هم وسط

في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية وبين أهل التمثيل المشبهة.

- كلام مقنع، وماذا قال الحاكم؟

+ لما رأى هذا الحاكم العدل ممالأتهم وتعصبهم ورأى قلة العارف الناصر، وخافهم، قال: أنت صنفت اعتقاد الإمام أحمد، فنقول هذا اعتقاد أحمد، يعني والرجل يصنف على مذهبه فلا يعترض عليه فإن هذا مذهب متبوع وغرضه بذلك قطع مخاصمة الخصوم.

- يريد أن ينهي الموضوع بنوع من المصالحة؟

+ نعم، ولكني لم أوافقه، "فقلت ما جمعت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا، والإمام أحمد إنما هو مبلّغ العلم الذي جاء به النبي ﷺ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يجئ به الرسول ﷺ لم نقبله، وهذه عقيدة محمد ﷺ.

- موقف صارم وحازم. وأعتقد أن الموقف كان يتطلب هذا.

+ "وقلت مرات قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ﷺ حيث قال: (خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك وعلي أن آتي بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة توافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم.

وقلت أيضًا في غير هذا المجلس: الإمام أحمد رحمه الله لما انتهى إليه من السنة ونصوص رسول الله ﷺ أكثر مما انتهى إلى غيره وابتلي بالمحنة

والرد على أهل البدع أكثر من غيره كان كلامه وعلمه في هذا الباب أكثر من غيره فصار إمامًا في السنة أظهر من غيره، وإلا فالأمر كما قاله بعض شيوخ المغاربة العلماء الصلحاء قال: المذهب لمالك والشافعي والظهور لأحمد بن حنبل، يعني أن الذي كان عليه أحمد عليه جميع أئمة الإسلام وإن كان لبعضهم من زيادة العلم والبيان وإظهار الحق ودفع الباطل ما ليس لبعض.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

+ "لما جاء فيها وما وصف به النبي ﷺ ربه في الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل العلم بالقبول، ولما جاء حديث أبي سعيد المتفق عليه في الصحيحين عن النبي ﷺ: (يقول الله يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تبعث بعثًا إلى النار)... الحديث، سألهم الأمير هل هذا الحديث صحيح؟ فقلت نعم هو في الصحيحين، ولم يخالف في ذلك أحد. واحتاج المنازع إلى الإقرار به ووافق الجماعة على ذلك وطلب الأمير الكلام في مسألة الحرف والصوت لأن ذلك طُلب منه".

- وما هي مسألة الحرف والصوت؟

+ هذه مسألة من تناقضات الأشعرية! فهم يثبتون أن الله يتكلم، لكن يقولون إنه لا يتكلم بصوت وكلمات! فهم يرون أن كلام الله كلام نفسي، أي مجرد معانٍ قديمة قائمة بذات الله، ليس بصوت وكلمات. ولذلك لا يذكرون مثل هذه الأحاديث الصريحة في الصوت والقول والمناداة. ولذلك هم يشنعون على من يثبت الكلام لله ومن يقول إن القرآن كلام الله، بأنه يقول إن صوت القارئ قديم أي غير مخلوق!

- حسنًا، وماذا قلت للأمير؟

+ "فقلت هذا الذي يحكيه كثير من الناس عن الإمام أحمد وأصحابه أن صوت القارئين ومداد المصاحف قديم أزلي كما نقله مجد الدين ابن الخطيب [الرازي] وغيره كذب مفترى، لم يقل ذلك أحمد ولا أحد من علماء المسلمين لا من أصحاب أحمد ولا غيرهم. وأخرجت كراسًا قد أحضرته مع العقيدة فيه ألفاظ أحمد، مما ذكره الشيخ أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن الإمام أحمد وما جمعه صاحبه أبو بكر المروذي من كلام الإمام أحمد وكلام أئمة زمانه وسائر أصحابه أن من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. قلت وهذا هو الذي نقله الأشعري في كتاب المقالات عن أهل السنة وأصحاب الحديث، وقال إنه يقول به. قلت فكيف بمن يقول لفظي قديم فكيف بمن يقول صوتي غير مخلوق فكيف بمن يقول صوتي قديم؟ ونصوص الإمام أحمد في الفرق بين تكلم الله بصوت وبين صوت العبد كما نقله البخاري صاحب الصحيح في كتاب خلق أفعال العباد وغيره من أئمة السنة.

وأحضرت جواب مسألة كنت سئلت عنها قديمًا فيمن حلف بالطلاق في مسألة الحرف والصوت ومسألة الظاهر في العرش فذكرت من الجواب القديم في هذه المسألة وتفصيل القول فيها وأن إطلاق القول إن القرآن هو الحرف والصوت أو ليس بحرف ولا صوت كلاهما بدعة حدثت بعد المائة الثالثة، وقلت هذا جوابي.

وكانت هذه المسألة قد أرسل بها طائفة من المعاندين المتجهمة ممن كان بعضهم حاضرًا في المجلس فلما وصل إليهم الجواب أسكتهم وكانوا قد ظنوا أني إن أجبت بما في ظنهم أن أهل السنة تقوله حصل

مقصودهم من الشناعة وإن أجبت بما يقولونه هم حصل مقصودهم من الموافقة فلما أجيبوا بالفرقان الذي عليه أهل السنة وليس هو ما يقولونه هم ولا ما ينقلونه عن أهل السنة إذ قد يقوله بعض الجهال بهتوا لذلك وفيه أن القرآن كله كلام الله حروفه ومعانيه ليس القرآن اسمًا لمجرد الحروف ولا لمجرد المعاني.

وقلت في ضمن الكلام لصدر الدين ابن الوكيل، لبيان كثرة تناقضه وأنه لا يستقر على مقالة واحدة وإنما يسعى في الفتن والتفريق بين المسلمين، عندي عقيدة للشيخ أبي البيان فيها (أن من قال إن حرفًا من القرآن مخلوق فقد كفر)، وقد كتبت عليها بخطك أن هذا مذهب الشافعي وأئمة أصحابه وأنك تدين الله بها، فاعترف بذلك فأنكر عليه الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني ذلك.

فقال ابن الوكيل هذا نص الشافعي وراجعه في ذلك مرارًا. فلما اجتمعنا في المجلس الثاني ذكر لابن الوكيل أن ابن درباس نقل في كتاب (الانتصار) عن الشافعي مثل ما نقلت فلما كان في المجلس الثالث أعاد ابن الوكيل الكلام في ذلك.

فقال الشيخ كمال الدين لصدر الدين ابن الوكيل قد قلت في ذلك المجلس للشيخ تقي الدين: إنه من قال إن حرفًا من القرآن مخلوق فهو كافر، فأعاده مرارًا فغضب هنا الشيخ كمال الدين غضبًا شديدًا ورفع صوته، وقال هذا يكفر أصحابنا المتكلمين الأشعرية الذين يقولون إن حروف القرآن مخلوقة مثل إمام الحرمين وغيره وما نصبر على تكفير أصحابنا.

فأنكر ابن الوكيل أنه قال ذلك وقال ما قلت ذلك، وإنما قلت إن من أنكر حرفًا من القرآن فقد كفر. فرد ذلك عليه الحاضرون وقالوا ما قلت إلا كذا وكذا. وقالوا ما ينبغي لك أن تقول قولاً وترجع عنه. وقال بعضهم ما قال هذا فلما حرفوا، قال ما سمعناه قال هذا حتى قال نائب السلطان واحد يكذب وآخر يشهد والشيخ كمال الدين مغضب فالتفت إلى قاضي القضاة نجم الدين الشافعي يستصرخه للانتصار على ابن الوكيل حيث كفر أصحابه فقال القاضي نجم الدين ما سمعت هذا فغضب الشيخ كمال الدين وقال كلامًا لم أضبط لفظه إلا أن معناه أن هذا غضاضة على الشافعي وعار عليهم أن أئمتهم يكفرون ولا ينتصر لهم.

ولم أسمع من الشيخ كمال الدين ما قال في حق القاضي نجم الدين واستثبت غيري ممن حضر هل سمع منه في حقه شيئًا فقالوا: لا. لكن القاضي اعتقد أن التعبير لأجله ولكونه قاضي المذهب ولم ينتصر لأصحابه وأن الشيخ كمال الدين قصده بذلك فغضب قاضي القضاة نجم الدين وقال اشهدوا عليّ أني عزلت نفسي وأخذ يذكر ما يستحق به التقديم الاستحقاق وعفّته عن التكلم في أعراض الجماعة ويستشهد بنائب السلطان في ذلك. وقلت له كلامًا مضمونه تعظيمه واستحقاقه لدوام المباشرة في هذه الحال".

- إذن اختلفوا وهم يناظرونك؟!

+ نعم، وهذه حال من خالف ما كان عليه السلف الصالح، لا بد أن يصلوا إلى مواضع يختلفون فيها، لأن كلاً يقدم ما يراه عقله وما يقوله إمامه، ولا يرجعون إلى النصوص.

- وماذا جرى بعد ذلك؟

+ "لما جاءت مسألة القرآن ومن الإيمان به والإيمان بأن القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود نازع بعضهم في كونه منه بدأ وإليه يعود وطلبوا تفسير ذلك.

- لا بد أنهم سيعترضون عليك، لأن هذه من أصول مذهب الأشاعرة، فيما أفهم. فماذا كان ردّك؟

+ قلت لهم: "أما هذا القول فهو المأثور الثابت عن السلف، مثل ما نقله عمرو بن دينار قال: أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون الله الخالق وما سواه مخلوق إلا القرآن فإنه كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود. وقد جمع غير واحد ما في ذلك من الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين كالحافظ أبي الفضل بن ناصر والحافظ أبي عبد الله المقدسي وأما معناه فإن قولهم منه بدأ أي هو المتكلم به وهو الذي أنزله من لدنه ليس هو كما تقول الجهمية أنه خلق في الهواء أو غيره أو بدأ من عند غيره. وأما إليه يعود فإنه يُسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصدور فلا يبقى في الصدور منه كلمة ولا في المصاحف منه حرف."

- وما كان ردهم؟

+ "وافق على ذلك غالب الحاضرين وسكت المنازعون."

- ثم ماذا حدث؟

+ "... وجاء فيها ومن الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وأن الله تكلم به حقيقة وأن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ولا يجوز إطلاق القول

بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا".

- هذا تفصيل لما سبق، فماذا كانت ردة فعلهم؟

+ " تمعض بعضهم من إثبات كونه كلام الله حقيقة بعد تسليمه أن الله تعالى تكلم به حقيقة ثم إنه سلم ذلك لما بين له أن المجاز يصح نفيه وهذا لا يصح نفيه ولما بين له أن أقوال المتقدمين المأثورة عنهم وشعر الشعراء المضاف إليهم هو كلامهم حقيقة فلا يكون نسبة القرآن إلى الله بأقل من ذلك.

فوافق الجماعة كلهم على ما ذكر في مسألة القرآن وأن الله تكلم حقيقة وأن القرآن كلام الله حقيقة لا كلام غيره.

ولما ذكر فيها أن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا استحسنوا هذا الكلام وعظموه وأخذ أكبر الخصوم يظهر تعظيم هذا الكلام كابن الوكيل وغيره وأظهر الفرح بهذا التلخيص وقال إنك قد أزلت عنا هذه الشبهة وشفيت الصدور ويذكر أشياء من هذا النمط.

ولما جاء ما ذكر من الإيمان باليوم الآخر وتفصيله ونظمه استحسنوا ذلك وعظموه، وكذلك لما جاء ذكر الإيمان بالقدر وأنه على درجتين إلى غير ذلك مما فيها من القواعد الجليلة، وكذا لما جاء ذكر الكلام في الفاسق الملّي وفي الإيمان لكن اعترضوا ذلك بما سأذكره."

- هذه العقيدة عقيدة محكمة وكلها نصوص، آيات وأحاديث، فما وجه اعتراضهم عليها؟

+ "كان مجموع ما اعترض به المنازعون المعاندون بعد انقضاء قراءة جميعها والبحث فيها عن أربعة أسئلة:

الأول قولنا ومن أصول الفرقة الناجية أن الإيمان والدين قول وعمل يزيد وينقص قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح. قالوا فإذا قيل إن هذا من أصول الفرقة الناجية خرج عن الفرقة الناجية من لم يقل بذلك مثل أصحابنا المتكلمين الذين يقولون إن الايمان هو التصديق، ومن يقول الإيمان هو التصديق والإقرار، وإذا لم يكونوا من الناجين لزم أن يكونوا هالكين.

وأما الأسئلة الثلاثة وهي التي كانت عمدتهم فأوردوها على قولنا (وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله في كتابه وتواتر عن رسول الله ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه عليّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون كما جمع بين ذلك في قوله تعالى: (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير). وليس معنى قوله: (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر أينما كان وغير المسافر وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع إليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته وكل هذا الكلام الذي ذكره الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ولكن يصان عن الظنون الكاذبة).

السؤال الثاني قال بعضهم: نُقِرّ باللفظ الوارد مثل حديث العباس حديث الأوعال والله فوق العرش ولا نقول فوق السماوات ولا نقول على العرش، وقالوا أيضًا نقول: (الرحمن على العرش استوى) ولا نقول الله على العرش استوى ولا نقول مستوٍ، وأعادوا هذا المعنى مرارًا".

- وما كان قصدهم بذلك؟

+ قصدوا "... أن اللفظ الذي ورد يقال اللفظ بعينه ولا يبدل به لفظٌ يرادفه ولا يفهم له معنى أصلاً ولا يقال إنه يدل على صفة الله أصلاً...".

- وهذا هو التفويض الذي سبق ذكره؟ فما السؤال الثالث؟

+ "السؤال الثالث قالوا: التشبيه بالقمر فيه تشبيه كون الله في السماء بكون القمر في السماء.

السؤال الرابع قالوا: قولك (حق على حقيقته) الحقيقة هي المعنى اللغوي ولا يفهم من الحقيقة اللغوية إلا استواء الأجسام وفوقيتها ولم تضع العرب ذلك إلا لها، فإثبات الحقيقة هو محض التجسيم، ونفي التجسيم مع هذا تناقض أو مصانعة.

- ماذا كان جوابك؟

+ "فأجبتهم عن الأسئلة بأن قولي اعتقاد الفرقة الناجية هي الفرقة التي وصفها النبي ﷺ بالنجاة حيث قال تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي. فهذا الاعتقاد هو المأثور عن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وهم ومن اتبعهم الفرقة الناجية فإنه قد ثبت عن غير واحد من الصحابة أنه قال الإيمان يزيد وينقص، وكل ما ذكرته في ذلك فإنه

مأثور عن الصحابة بالأسانيد الثابتة لفظه ومعناه وإذا خالفهم من بعدهم لم يضر في ذلك.

ثم قلت لهم وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكًا، فإن المنازع قد يكون مجتهدًا مخطئًا يغفر الله خطأه وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته. وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لا يجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك فهذا أولى بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيًا وقد لا يكون ناجيًا كما يقال من صمت نجا".

- والله لقد كنت منصفًا وموضوعيًّا في حكمك. وماذا عن السؤال الثاني؟

+ "وأما السؤال الثاني فأجبتهم أولاً بأن كل لفظ قلته فهو مأثور عن النبي ﷺ مثل لفظ فوق السماوات ولفظ على العرش وفوق العرش، وقلت اكتبوا الجواب، فأخذ الكاتب في كتابته ثم قال بعض الجماعة: قد طال المجلس اليوم فيؤخر هذا إلى مجلس آخر وتكتبون أنتم الجواب وتحضرونه في ذلك المجلس.

فأشار بعض الموافقين بأن يتمم الكلام بكتابة الجواب لئلا تنتشر أسئلتهم واعتراضهم. وكان الخصوم لهم غرض في تأخير كتابة الجواب ليستعدوا لأنفسهم ويطالعوا ويحضروا من غاب من أصحابهم ويتأملوا العقيدة فيما بينهم ليتمكنوا من الطعن والاعتراض فحصل الاتفاق على أن يكون تمام الكلام يوم الجمعة وقمنا على ذلك.

وقد أظهر الله من قيام الحجة وبيان المحجة ما أعز الله به السنة والجماعة وأرغم به أهل البدعة والضلالة وفي نفوس كثير من الناس أمور لما يحدث في المجلس الثاني. وأخذوا في تلك الأيام يتأملونها ويتأملون ما أجبت به في مسائل تتعلق بالاعتقاد مثل المسألة الحموية في الاستواء والصفات الخبرية وغيرها.

- إذن كانت هذه المناظرة سببًا في رجوع الناس إلى كتبك ورسائلك وقراءتها وفهمها وعدم الاعتماد على ما يقوله خصومك عنك؟

+ نعم، وهذا من فضل الله تعالى.

-وماذا حصل في المجلس التالي؟

+ "لما كان المجلس الثاني يوم الجمعة في اثني عشر رجب، أحضروا أكثر شيوخهم ممن لم يكن حاضرًا ذلك المجلس وأحضروا معهم زيادة صفي الدين الهندي، وقالوا هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام وبحثوا فيما بينهم واتفقوا وتواطؤوا وحضروا بقوة واستعداد غير ما كانوا عليه لأن المجلس الأول أتاهم بغتة وإن كان أيضًا بغتة للمخاطب الذي هو المسؤول والمجيب والمناظر.

فلما اجتمعنا وقد أحضرت ما كتبته من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة الذي طلبوا تأخيره إلى اليوم حمدت الله بخطبة الحاجة خطبة ابن مسعود رضي الله عنه ثم قلت: إن الله تعالى أمرنا بالجماعة والائتلاف ونهانا عن الفرقة والاختلاف.

وقال لنا في القرآن: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ (آل عمران: ١٠٣) وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٥٩) وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ (آل عمران: ١٠٥)، وربنا واحد وكتابنا واحد ونبينا واحد وأصول الدين لا تحتمل

التفرق والاختلاف. وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين وهو متفق عليه بين السلف فإن وافق الجماعة فالحمد لله وإلا فمن خالفني بعد ذلك كشفت له الأسرار وهتكت الأستار وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول وأنا أذهب إلى سلطان الوقت على البريد وأعرفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس فإن للسلم كلامًا وللحرب كلامًا. وقلت لا شك أن الناس يتنازعون يقول هذا أنا حنبلي ويقول هذا أنا أشعري ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لا يعرفون حقيقتها. وأنا قد أحضرت ما يبين اتفاق المذاهب فيما ذكرته وأحضرت كتاب (تبيين كذب المفتري فيما ينسب إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري) رحمه الله تأليف الحافظ أبي القاسم ابن عساكر رحمه الله. وقلت لم يصنف في أخبار الأشعري المحمودة كتاب مثل هذا وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في كتابه الإبانة.

فلما انتهيت إلى ذكر المعتزلة سأل الأمير عن معنى المعتزلة فقلت كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملّي وهو أول اختلاف حدث في الملة هل هو كافر أو مؤمن فقالت الخوارج إنه كافر وقالت الجماعة إنه مؤمن وقالت طائفة نقول هو فاسق لا مؤمن ولا كافر ننزله منزلة بين المنزلتين وخلدوه في النار واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه رحمه الله تعالى فسموا معتزلة

وقال الشيخ الكبير بجبته وردائه: ليس كما قلتَ ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام وسُمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ثم خلفه بعد موته عطاء بن واصل. هكذا قال وذكر نحوًا من هذا.

فغضبت عليه، وقلت: أخطأت وهذا كذب مخالف للإجماع. وقلت له: لا أدب ولا فضيلة لا تأدبت معي في الخطاب ولا أصبت في الجواب.

ثم قلت: الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون وبعدها في أواخر المائة الثانية وأما المعتزلة فقد كانوا قبل ذلك بكثير في زمن عمرو بن عبيد بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة الكلام ولا تنازعوا فيها وإنما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعيد.

فقال هذا ذكره الشهرستاني في كتاب الملل والنحل. فقلت الشهرستاني ذكر ذلك في اسم المتكلمين لم سُموا متكلمين، لم يذكره في اسم المعتزلة، والأمير إنما سأل عن اسم المعتزلة. وأنكر الحاضرون عليه وقالوا: غلطْتَ. وقلت في ضمن كلامي: أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام وأول من ابتدعها وما كان سبب ابتداعها وأيضًا فما ذكره الشهرستاني ليس بصحيح في اسم المتكلمين فإن المتكلمين كانوا يسمون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الكلام وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء إنه متكلم ويصفونه بالكلام ولم يكن الناس اختلفوا في مسألة الكلام.

وقلت - أنا وغيري - إنما هو واصل بن عطاء، (أي: لا عطاء بن واصل كما ذكره المعترض). قلت وواصل لم يكن بعد موت عمرو بن عبيد وإنما كان قرينه....

ولما انتهى الكلام إلى ما قاله الأشعري قال الشيخ المقدم فيهم: لا ريب أن الإمام أحمد إمام عظيم القدر ومن أكبر أئمة الإسلام لكن قد انتسب إليه أناس ابتدعوا أشياء.

- لا شك أن هذا لمزٌ لك.

+ ربما، لكني قابلته بما يوضح الحق فقلت: "أما هذا فحق، وليس هذا من خصائص أحمد بل ما من إمام إلا وقد انتسب إليه أقوام هو منهم بريء. قد انتسب إلى مالك أناس مالك بريء منهم وانتسب إلى الشافعي أناس هو بريء منهم وانتسب إلى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم وقد انتسب إلى موسى عليه السلام أناس هو منهم بريء وانتسب إلى عيسى عليه السلام أناس هو منهم بريء وقد انتسب إلى علي بن أبي طالب أناس هو بريء منهم، ونبينا ﷺ قد انتسب إليه من القرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف الملاحدة والمنافقين من هو بريء منهم.

- أحسنت، يا شيخ فقد استخدمت قاعدته لتبين خطأه! وهل اقتنع؟

+ لا، بل أمعن في اللمز، فذكر في كلامه أنه انتسب إلى أحمد ناس من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام.

- فماذا أجبته؟

+ قلت: المشبهة والمجسمة في غير أصحاب الإمام أحمد أكثر منهم فيهم. هؤلاء أصناف الأكراد كلهم شافعية وفيهم من التشبيه والتجسيم ما لا يوجد في صنف آخر، وأهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية. قلت وأما الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك ما في غيرهم. وكان من تمام الجواب أن الكرّامية المجسمة كلهم حنفية.

وتكلمت على لفظ الحشوية، فقلت هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة فإنهم يسمون الجماعة والسواد الأعظم الحشو كما تسميهم الرافضة الجمهور وحشو الناس هم عموم الناس وجمهورهم وهم غير الأعيان المتميزين يقولون هذا من حشو الناس كما يقال هذا من جمهورهم.

وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد، وقال كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه حشويًّا فالمعتزلة سموا الجماعة حشوًا كما تسميهم الرافضة الجمهور.

وقلت: أول من قال إن الله جسم هشام بن الحكم الرافضي.

وقلت لهذا الشيخ من في أصحاب الإمام أحمد رحمه الله حشوي بالمعنى الذي تريده؟ الأثرم أبو داود المروذي الخلال أبو بكر عبد العزيز أبو الحسن التميمي ابن حامد القاضي أبو يعلى أبو الخطاب ابن عقيل؟ ورفعت صوتي وقلت سمهم، قل لي من هم؟ من هم؟

أبكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين؟ كما نقل هو وغيره عنهم أنهم يقولون إن القرآن القديم هو أصوات القارئين ومداد الكاتبين وإن الصوت والمداد قديم أزليّ. من قال هذا وفي أي كتاب وجد هذا عنهم؟ قُل لي. وكما نقل عنهم أن الله لا يرى في الآخرة باللزوم الذي ادعاه والمقدمة التي نقلها عنهم.

- من تعني بابن الخطيب؟

+ أعني فخر الدين الرازي.

- صحيح، وقد ذكر ابن الوزير عنه أنه كثير التلون - العواصم والقواصم لابن الوزير ٧/ ٥١،

+ وهذا بين لمن قرأ كتبه، عفا الله عنه. "بل هو من أعظم الناس في هذا الباب، باب الحيرة والشك والاضطراب، لكن هو مسرف في هذا الباب، بحيث له نهمة في التشكيك دون التحقيق، بخلاف غيره فإنه يحقق

شيئًا ويثبت على نوع من الحق..."[1] وقد ناقشته ورددت عليه في عدد من كتبي، منها أهمها درء تعارض العقل والنقل وبيان تلبيس الجهمية.

- دعنا نعدْ للمناظرة، ما الذي حصل بعد ذلك؟

- "أخذت أذكر ما يستحقه هذا الشيخ من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين ما يستحق أن يعامل بموجبه، وأمرت بقراءة العقيدة جميعها عليه فإنه لم يكن حاضرًا في المجلس الأول وإنما أحضروه في الثاني انتصارًا به.

وحدثني الثقة عنه بعد خروجه من المجلس أنه اجتمع به وقال له: أخبرني عن هذا المجلس. فقال ما لفلان ذنب - يعنيني - ولا لي فإن الأمير سأل عن شيء فأجابه عنه فظننته سأل عن شيء آخر.

وقال: قلت لهم أنتم ما لكم على الرجل اعتراض فإنه نصر ترك التأويل وأنتم تنصرون قول التأويل وهما قولان للأشعري

وقال أنا أختار قول ترك التأويل وأخرج وصيته التي أوصى بها وفيها قول ترك التأويل.

قال الحاكي لي: فقلت له بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة لا تكتبوا عني نفيًا ولا إثباتًا فلم ذاك؟ فقال لوجهين:

أحدهما أني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الأول

والثاني لأن أصحابي طلبوني لينتصروا بي فما كان يليق أن أظهر مخالفتهم فسكت عن الطائفتين"

---

(١) الانتصار لأهل الأثر ص ٤٣.

- إن صح هذا عنه، فهو كتمان للعلم الذي أخذ الله العهد على العلماء ببيانه! وهذا ما يجر إليه التعصب للمذهب، ومداهنة الناس. ثم ماذا حصل؟

+ "أمرت غير مرة أن يعاد قراءة العقيدة جميعها على هذا الشيخ فرأى بعض الجماعة أن ذلك تطويل وأنه لا يقرأ عليه إلا الموضع الذي لهم عليه سؤال وأعظمه لفظ (الحقيقة)"

- وهل كان اعتراضه على قراءة العقيدة جميعها بسبب التطويل فعلاً؟

+ ربما، لكن يغلب على الظن، أنه كان يريد التركيز على هذه الألفاظ التي قد تشكل على بعض العلماء. فهو لا يريده أن يفهمها في سياقها الصحيح فيتضح المقصود منها. وهذا أسلوب يتبعه كثير من أهل البدع في التعاطي مع القضايا التي أطرحها، فهم لا يأخذون كلامي كاملاً، ولا يستوعبون السياق الذي أطرح فيه القضية والمفهوم، بل ينتزعون كلمة أو عبارة ويفسرونها بما يريدون. لكن على أي حال تم لهم ما أرادوا "فقرؤوه عليه فذكر هو بحثًا حسنًا يتعلق بدلالة اللفظ، فحسنته ومدحته عليه وقلت: لا ريب أن الله حي حقيقة عليم حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة وهذا متفق عليه بين أهل السنة والصفاتية من جميع الطوائف ولو نازع بعض أهل البدع في بعض ذلك فلا ريب أن الله موجود والمخلوق موجود ولفظ (الوجود) سواء كان مقولاً عليهما بطريق الاشتراك اللفظي فقط أو بطريق التواطؤ المتضمن للاشتراك لفظًا ومعنى أو بالتشكيك الذي هو نوع من التواطؤ، فعلى كل قول، فالله موجود حقيقة والمخلوق موجود حقيقة ولا يلزم من إطلاق الاسم على الخالق والمخلوق بطريق الحقيقة محذور. ولم أرجح في ذلك المقام قولاً من هذه الثلاثة على الآخر لأن غرضي تحصّل على كل مقصودي.

وكان مقصودي تقرير ما ذكرته على قول جميع الطوائف وأن أبين اتفاق السلف ومن تبعهم على ما ذكرت وأن أعيان المذاهب الأربعة والأشعري وأكابر أصحابه على ما ذكرته فإنه قبل المجلس الثاني اجتمع بي من أكابر علماء الشافعية والمنتسبين إلى الأشعرية والحنفية وغيرهم ممن عظم خوفهم من هذا المجلس وخافوا انتصار الخصوم فيه وخافوا على نفوسهم أيضًا من تفرق الكلمة فلو أظهرت الحجة التي ينتصر بها ما ذكرته أو لم يكن من أئمة أصحابهم من يوافقها لصارت فرقة ولصعب عليهم أن يظهروا في المجالس العامة الخروج عن أقوال طوائفهم بما في ذلك من تمكن أعدائهم من أغراضهم

فإذا كان من أئمة مذاهبهم من يقول ذلك وقامت عليه الحجة وبان أنه مذهب السلف أمكنهم إظهار القول به مع ما يعتقدونه في الباطن من أنه الحق حتى قال لي بعض الأكابر من الحنفية، وقد اجتمع بي: لو قلت هذا مذهب أحمد وثبَتَّ على ذلك لانقطع النزاع.

- وماذا كان يقصد من ذلك؟

+ مقصوده أنه يحصل دفع الخصوم عنك بأنه مذهب متبوع ويستريح المنتصر والمنازع من إظهار الموافقة.

- وهل وافقت؟

+ لا، وقلت لا والله "ليس لأحمد بن حنبل في هذا اختصاص وإنما هذا اعتقاد سلف الأمة وأئمة أهل الحديث، وقلت أيضًا هذا اعتقاد رسول الله ﷺ وكل لفظ ذكرته فأنا أذكر به آية أو حديثًا أو إجماعًا سلفيًا وأذكر من ينقل الإجماع عن السلف من جميع طوائف المسلمين والفقهاء

الأربعة والمتكلمين وأهل الحديث والصوفية. وقلت لمن خاطبني من أكابر الشافعية لأبين أن ما ذكرته هو قول السلف وقول أئمة أصحاب الشافعي وأذكر قول الأشعري وأئمة أصحابه التي ترد على هؤلاء الخصوم ولينتصرن كل شافعي وكل من قال بقول الأشعري الموافق لمذهب السلف وأبين أن القول المحكي عنه في تأويل الصفات الخبرية قول لا أصل له في كلامه وإنما هو قول طائفة من أصحابه. فللأشعرية قولان ليس للأشعري قولان."

- ماذا حدث بعد ذلك؟

+ "طلب بعضهم إعادة قراءة الأحاديث المذكورة في العقيدة ليطعن في بعضها، فعرفت مقصوده فقلت: كأنك قد استعددت للطعن في (حديث الأوعال) حديث العباس بن عبد المطلب".

- وما هو حديث الأوعال؟

+ حديث الأوعال هو حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال:

(كُنتُ فِي البَطْحَاءِ فِي عِصَابَةٍ فِيهِم رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَّت بِهِم سَحَابَةٌ، فَنَظَرَ إِلَيهَا فَقَالَ: "مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟" قالوا: السَّحَابُ. قَالَ: "وَالمُزنُ"، قَالُوا: وَالمُزنُ، قَالَ: "وَالعَنَانُ"، قَالُوا: وَالعَنَان، قال: "هَل تَدرُونَ مَا بُعدُ مَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟" قالوا: لا نَدرِي. قَالَ: "إِنَّ بُعدَ مَا بَينَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَو اثنَتَانِ أَو ثَلاثٌ وَسَبعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوقَهَا كَذَلِكَ - " حَتَّى عَدَّ سَبعَ سَمَاوَاتٍ " - ثُمَّ فَوقَ السَّابِعَةِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعْلاهُ مِثلُ مَا بَينَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ، بَينَ أَظلافِهِم وَرُكَبِهِم

مِثْلُ مَا بَينَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَى ظُهُورِهِم العَرشُ، مَا بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلاهُ مِثْلُ مَا بَينَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوقَ ذَلِكَ)[1].

وكانوا قد تعنتوا حتى ظفروا بما تكلم به زكي الدين عبد العظيم [المنذري] من قول البخاري في تأريخه: عبد الله بن عميرة لا يعرف له سماع من الأحنف. فقلت: هذا الحديث مع أنه رواه أهل السنن كأبي داود وابن ماجه والترمذي وغيرهم، فهو مرويّ من طريقين مشهورين فالقدح في أحدهما لا يقدح في الآخر.

فقال: أليس مداره على ابن عميرة وقد قال البخاري لا يعرف له سماع من الأحنف؟

فقلت: قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولاً إلى النبي ﷺ. قلت والإثبات مقدم على النفي والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف، لم ينفِ معرفة الناس بهذا. فإذا عرف غيره كإمام الأئمة ابن خزيمة ما ثبت به الإسناد كانت معرفته وإثباته مقدمًا على نفي غيره وعدم معرفته، ووافق الجماعة على ذلك. وأخذ بعض الجماعة يذكر من المدح ما لا يليق أن أحكيه وأخذوا يناظرون في أشياء لم تكن في العقيدة ولكن لها تعلق بما أجبت به في مسائل ولها تعلق بما قد يفهمونه منها ...".

- لكن ألا ترى أنك تستدل بحديث في ثبوته كلام كثير، خاصة أن كثيرًا من العلماء ضعفوه.

---

(١)

+ هنا قاعدة يجب أن تفهمها. فأنا لم أستدل بهذا الحديث على إثبات أصل من الأصول، فالحديث رواه العلماء الأئمة وصححه بعضهم، وأنا إنما استدللت به على مسألة أصلها ثابت بنصوص أخرى صحيحة كثيرة. ففرق بين إثبات أصل بحديث ضعيف أو مختلف فيه، وبين قبول حديث صححه بعض العلماء استشهادًا أو استدلالاً على أصل ثابت في نفسه بأدلة أخرى. وهم لم يعترضوا على حديث الأوعال لمجرد أن الرواية ضعيفة، هم لا يقبلون أصل المسألة وهي مسألة علو الله جل وعلا.

- هذه نقطة مهمة. وماذا حصل بعد ذلك؟

+ انتهى المجلس على هذا. لكن كيدهم وخصومتهم لم ينتهيا. "وبعد المجلس حصل من ابن الوكيل وغيره من الكذب والاختلاق والتناقض بما عليه الحال ما لا يوصف".

حدة أسلوب ابن تيمية

- ألحظ في خطابك حدة، وكذا ينتقدك حتى بعض محبيك بذلك. فهم يرون أن عبارتك قاسية في بعض الأحيان خاصة عندما تناقش وتحاور.

نظر إليّ متعجبًا وقال على الفور:

+ لا تنس أني بشر من البشر، يعتريني ما يعتريهم من الغضب ونحوه، وهذا لا يكاد يخلو منه أحد. ولا تنس أيضًا أني غالبًا أؤلف ردودًا وعلى وجه السرعة، وتحت ضغط نصرة السنة والدفاع عنها والدفاع عن نفسي أيضًا، فكثير كان يريد إيقاع السوء بي. كما أني أثناء تأليفي وردودي أطلع على تلبيس كثير وربما كذب وخيانة علمية وجرأة على كلام الله وكلام رسوله ﷺ وكلام العلماء. فمن الطبيعي أن أغضب وتحتدّ عبارتي. وماذا تنتظر ممن هو في مثل حالي؟! لكن هذا لا يكاد يكون أبدًا في دروسي أو في المؤلفات التي أؤلفها ابتداء وتقريرًا. أنا لا أؤلف كما يفعل كثير غيري في سعة من الدنيا وفي رغد من العيش. خصومي يلاحقونني في كل أحوالي ويسعون للإيقاع بي في كل صغيرة وكبيرة. ثم إني أكتب وأتكلم وقلبي يحترق على ما أراه من تضييع للسنة وانشغال بعلم الكلام وتقليد المذاهب، ونصر لكلام أهل الإلحاد من غلاة المتصوفة والمتفلسفة وترويج له.

- هذا صحيح، فحدتك تكون في الكتب التي تؤلفها ردًا على آخرين...

+ نعم، فخذ مثلاً كتابي الصغير، وهو في الأصل رسالة، العقيدة الواسطية، التي لخصت فيها عقيدة أهل السنة مع التركيز على بابي الأسماء والصفات والقدر.

- عذرًا للمقاطعة، ولماذا ركزت على هذين البابين؟

+ لأنهما أكثر الأبواب التي شاع فيها الخلاف في العقائد بين منهج السلف والفرق التي خالفته، وتحديدًا الأشاعرة والمعتزلة.

- كنت تتحدث عن أسلوبك في الكتب التي تؤلفها ابتداء، دعنا نكمل.

+ نعم، كنت أقول إن كتبي التي أؤلفها ابتداء مثل العقيدة الواسطية ورفع الملام ونحوهما فيها اختصار وتركيز وهدوء في العبارة. لأني أقرر القواعد ولا أتعرض لكلام الخصوم. وهذه هي الكتب التي أوصي دائمًا بأن يرجع إليها لمعرفة أقوالي في أي قضية، قبل الدخول في كتب الردود والجدل.

كما أن حدتي تكون في كلام عام، بمعنى أني لا أحتد على شخص بعينه، إلا ما ندر. فمثلاً عندما أناقش أحد علماء المسلمين فإني أحفظ مكانته وأحترمه حتى لو خالفته ونقضت أقواله.

- نعم رأيت هذا في حوارك مع الرازي ومع ابن رشد ومع الغزالي...

+ نعم، لكن عندما أتكلم مع مثل ابن المطهر الحلي الرافضي، الذي يكفر الصحابة، ويسعى في نقض عرا الإسلام والسنة، ويؤصل تكفير الصحابة وانتقاصهم، ماذا تتوقع مني؟!

- إذن أنت تحتد على من ترى منه عنادًا أو سوء قصد؟

+ نعم، فأنا لا أتشفى من خصمي، "وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتمًّا بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس وحاكمًا فيما اختلفوا فيه..." ولأذكر لك قصة حدثت لي مع خصومي.

- تفضل أنا متشوق لها.

+ بعد أن استعاد السلطان الناصر الحكم في مصر وتولى الأمور بعد أن خرج عليه بعض وزرائه بمعاونة بعض العلماء الذين كانوا من خصومي، جلس السلطان مجلسًا فطلبني، واختلى بي "ثم أخرج من جيبه فتاوى لبعض المشايخ في قتلي، ثم استفتاني في قتل بعضهم! ففهمت مقصوده، وعلمت أنه حانق عليهم لأنهم خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس."

- وماذا قلت؟ هل أفتيته بذلك؟

+ معاذ الله!

- لعلك قلت له أن يكتفي بسجنهم؟

+ لا! بل قلت كلامًا لم يتوقعه السلطان!

- كيف؟

+ شرعت "في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم، وقلت له إن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك. أما أنا فهم في حلٍّ من حقي ومن جهتي. وسكنت ما عنده عليهم"

- نعم، فقد قرأت في تأريخ ابن كثير أن خصمك القاضي ابن مخلوف، قاضي المالكية، وكان من هؤلاء فيما يبدو صار يثني عليك بذلك، فكان

يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجَّ عنا.

+ ابن مخلوف على خصومته لي "لو عمل ما عمل، والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعين عليه عدوًّا قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هذه نيتي وعزمي". فأنا "أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي". والله يعفو عنا وعنهم. وأنا قد قلت للوزير لما جاءني في آخر حياتي في السجن يعتذر لي ويلتمس مني العفو على ما قاموا به من سجني والتضييق عليّ: " إني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق." وأنا قد أحللت السلطان الملك الناصر من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلدًا غيره معذورًا ولم يفعله لحظ نفسه، بل لما بلغه ما يظنه خطًا. وقد أحللت كل واحد مما كان بيني وبينه، إلا من كان عدوًّا لله ورسوله."

"والناس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشعرية وحشة ومنافرة، وأنا كنت من أعظم الناس تأليفًا لقلوب المسلمين وطلبًا لاتفاق كلمتهم واتباعًا لما أمرنا به من الاعتصام بحبل الله وأزلت عامة ما كان في النفوس من الوحشة ...".

طاف بي شعور بأنني قد أدركت الأسس التي أحتاجها من فكر ابن تيمية، وألممت بالقواعد التي تعينني على فهمه والاستفادة من علمه، وهذا أوجد عندي رغبة عظيمة في الانغماس في كتبه وقراءتها والتأمل فيها. لكني قبل أن أودعه وأختلي بكتبه، أردت أن آخذ منه بعض النصائح فيما لو استغلقت عليّ بعض القضايا المشكلة، فسألته:

- كثرت أمور الخلاف، وكثرت كتب الجدل والكلام، فكيف يفعل من اشتبهت عليه الأمور؟

+ أغمض ابن تيمية عينيه، وأخذ نفسًا عميقًا وكأنه يسترجع خبرة سنوات من الجدل والحوار مع خصومه، ثم فتح عينيه ورفع رأسه وقال:

"من اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام يصلي من الليل قال: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم".

- تعني يسلم ويفتقر إلى الله؟

+ نعم، "فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله ﷺ وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين انفتح له طريق الهدى. ثم إن كان قد خبر نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب وعرف أن غالب ما يزعمونه برهانًا هو شبهة، ورأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلى دعوى لا حقيقة لها أو شبهة مركبة من قياس فاسد أو قضية كلية لا تصح إلا جزئية أو دعوى إجماع لا حقيقة له، أو التمسك في المذهب والدليل بالألفاظ المشتركة. ثم إن ذلك إذا ركّب بألفاظ كثيرة وطويلة غريبة عمن لم يعرف اصطلاحهم - أوهمت الغِرّ ما يوهمه السراب للعطشان - ازداد إيمانًا وعلمًا بما جاء به الكتاب والسنة، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيمًا وبقدره

أعرف إذا هُدي إليه. فأما المتوسطون من المتكلمين فيخاف عليهم ما لا يخاف على من لم يدخل فيه وعلى من قد أنهاه. فإن من لم يدخل فيه فهو في عافية ومن أنهاه فقد عرف الغاية فما بقي يخاف من شيء آخر، فإذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله. وأما المتوسط فيتوهم بما يتلقاه من المقالات المأخوذة تقليدًا لمعظِّمةِ هؤلاء...".

" ومن الناس من ألِفَ قولاً واعتاده وتقلده عن بعض المعظمين في قلبه... فيكون هذا التقليد مانعًا له من أن يكون عقله صريحًا... فالعقل الصريح قليل في بني آدم، لكن علامته متابعة ما جاءت به الرسل عن الله تعالى فإن العقل الصريح لا يخالف ذلك قط...".

"ونحن نذكر قاعدة عامة في هذا الباب لهم ولسائر الأمة فنقول: لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، وثم يعرف الجزئيات كيف وقعت وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم."

"... ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول ﷺ وأخطأ في بعض ذلك فالله يغفر له خطأه، تحقيقًا للدعاء الذي استجابه الله لنبيه وللمؤمنين حيث قالوا: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) سورة البقرة ٢٨٦، ومن اتبع ظنه وهواه فأخذ يشنع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صوابًا بعد اجتهاده وهو من البدع المخالفة للسنة فإنه يلزمه نظير ذلك أو أعظم أو أصغر في من يعظمه هو من أصحابه. فقلَّ من يسلم من مثل ذلك من المتأخرين لكثرة الاشتباه والاضطراب وبعد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة الذي به يحصل الهدى والصواب ويزول به عن القلوب الشك والارتياب".

ودّعت ابن تيمية، أو بالأحرى ودعت خيال ابن تيمية.

هل كان ما مضى حلمًا، بالتأكيد لا. فلم أكن نائمًا، بل كان رحلة خيال مع ابن تيمية، انغمرت في كتب ابن تيمية وكتب تلاميذه، ففاضت عليّ أفكاره، فكأني أحادثه وأسائله. وكانت الكتب - كعادتها - كريمة، لا ترد سائلاً. وقد "كان الشيخ ينكر إنكارًا شديدًا على من يُسأل شيئًا من كتب العلم التي يملكها ويمنعها من السائل، ويقول ما ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه". ولذلك كانت الكتب وفيّة له، رغم سعي خصومه لمنع ذلك، فحفظت - بفضل الله - اجتهاده وعلمه وفكره، وأثْرَتْ عقول المؤمنين وطالبي الحق في كل زمان ومكان بعده.